ثوقيديدس Thucydides

هكذا تحدث أرخيداموس

أقدم إنذار حربي

ولد ثوقيديدس حوالي ٤٦٠ قبل الميلاد في اليونان. هو يعتبر إلى جانب الجيل القديم مثل هيرودوتس مؤسساً لكتابة التاريخ. كما عاصر حرب البيلوبونيز التي وقعت بين أسبارطة وأثينا وأرّخها في عمله الشهير الذي يحمل الاسم نفسه. تميز كتابه بعرضه للأحداث بشكل سليم وموضوعي كما أنه يحتوي على عدد كبير من خطابات السياسيين المخضرمين حول الحرب.

هنا ننشر خطاباً لملك أسبارطة أرخيداموس قبل أن يعلن الحرب على أثينا، ويعتبر تاريخياً من أقدم الانذارات الحربية قبل بدئها.

عندما تلَّقى الأسبارطيون من حلفائهم أخبار مظالم أثينا الواقعة عليهم، ومن أثينا رداً على تلك الشكاوي والاحتجاجات، استنفروا جميع قواهم لعقد اجتماع متراص الصفوف ثم تداولوا بشأن تلك التطورات. وعبًّرت أغلبيتهم عن رأيها في نفس الاتجاه، وهو أن أثينا قد انتهكت فعلاً حرمة القانون، ولذا يتحتم الدخول فوراً في حرب ضدها، بيد أن ملكهم أرخيداموس، الذي اشتهر بالحكمة وحصافة الرأي تحدث اليهم قائلاً: "أيها الأسبارطيون، لقد عشت بنفسي حروباً عدة، وهو ما يعرفه المتساوون معي في السن بين أظهركم، الذين عاشوا نفس الظروف لدرجة أن لا أحد يتحمس لهذا الشيء بدافع من الجهل وعدم معرفة ما سيؤول إليه مصير الكثير من الناس، حتى ولو انطلق من هذا التصور، وهو أن ذلك يعني عملاً جيداً ويضمن الأمن، بل إن هذه الحرب التي تتداولون بشأنها الآن، سوف لا تكون أتفه الأشياء وأقلها قيمة وأهمية، حسبما قد يجوز استنتاجه بوضوح من تأملات معقولة في تقديرات حسابية مسبقة! لأن قواتنا الحربية كانت متساوية النوع سواء بالنسبة إلى أعدائنا من مجموعة البيلوبونيز أو بالنسبة إلى المدن المجاورة لنا. إذ كان كل هدف تمكن مهاجمته بسرعة خاطفة، لكن شن حرب ضد شعب يعيش في أراض قاصية، وله تجارب كبرى في المعارك البحرية بل أكثر من ذلك، هو يتمتع بالشهرة والتفوق على كافة الأصعدة: مثل الثروات الثابتة والمنقولة، والسفن والأسلحة والخيول وجماهير غفيرة لا وجود لمثلها مطلقاً في أي مدينة من مدن هيلينا على انفراد. يضاف إلى ذلك، ارتباطه قبل كل شيء بحلفاء ملتزمين له بالدفع، فكيف يجوز إذن شن حرب على هذا الشعب بسهولة؟ وبشكل حتمي؟ وعلى أي شيء يعتمد يقينكم في توجيه ضربة خاطفة، دون أن تكونوا مسلحين؟ فهل تعتمدون على سفننا؟ إننا في هذا المجال أكثر ضعفاً. وإذا أردنا القيام باستدراك التسلح المضاد للمجابهة، مع ما يقتضيه ذلك من تداريب وتمارين فإن ذلك سيحتاج إلى وقت طويل. إذن، هل تعتمدون على أموالنا؟ اننا ينقصنا الكثير الكثير منها، فالدولة لا تملك شيئاً، وقد يمكن أن لا يستطيع الأفراد أيضاً أداء مهمة الأخذ والجلب والدفع فقط.

ولربما قد يجوز أن يكون أحدكم على يقين من أمره، لكوننا متفوقين عليهم في الأسلحة وقوات الجيش. وقد نستطيع غزو بلادهم وتدميرها بالكامل، لكنهم

يمتلكون المزيد من الأراضي الخاضعة لسيطرتهم، كما يمكنهم استدراك الضعف الذي تعاني منه قواتهم البحرية أيضاً. وعندما نحاول خلق شقاق وتمرد في صفوف حلفائهم، فيتحتم علينا الوقوف إلى جانب أولئك ودعمهم بالسفن الحربية أيضاً، لأن معظم تلك المدن أرخبيلية الطابع على سواحل الجزر. وعليه فكيف نقوم بقيادة هذه الحرب؟ إذا لم نحقق نصراً بحرياً، أو لم نسيطر على مداخيلهم المالية التي يستخدمونها لصيانة السفن وتصليحها، فإننا لن نجني سوى الشرور والأضرار فقط، وبعدئذ لن تُتاح لنا ولو فرصة واحدة لوقف رحى الحرب والخروج من ويلاتها بشرف! وخصوصاً إذا كنا متهمين بكوننا نحن الذين بدأوا الحرب وأطلقوا شرارتها الاولى. لذا، فنحن لا نسمح لأنفسنا بالانخداع بالأوهام المضللة التي تقول: الحرب تنتهي بسرعة، إذا تم هجوم صاعق، يقضي على الأخضر واليابس، بل إني أخشى أكثر من ذلك: أن نُوَرِّث أبناءنا وأحفادنا أوزار هذه الحرب وتبعاتها لأجيال قادمة، حتى ولو أنه من غير المرجح ان يكون الأثينيّون المعتزون بأنفسهم، وأرقاء أراضيهم، وكأن ليس لديهم أي تجربة لترويع الآخرين وتهديدهم بما في ذلك شن الحرب عليهم.

بيد أني لا أريد أيضاً أن أقف موقف المتفرج الذي يرى بعينيه فقط كيف يقع إضعاف حلفائنا دون أن نتصدى لضربات المعتدين! وإنما نحن نريد، ودون إشهار للسلاح كذلك، أن نبعث برسلنا إليهم وهم يحملون شكاوانا وتظلماتنا، ودون ان نتحدث عن الحرب في هذا السياق بكامل الوضوح. لكن مع ذلك فنحن لا نريد الاستسلام، بل سنواصل حتى في هذه الفترة تسلحنا كذلك، مرة عن طريق كسب المزيد من الحلفاء في هيلاس، مثلما هو الشأن مع البرابرة. ومرة أخرى عن طريق تقوية سلطتنا ونفوذنا في أي ناحية من النواحي عن طريق السفن أو عن طريق المال، ما استطعنا لذلك سبيلاً! (ويجب ألاّ يُلام أحد مثلنا، تلاحقه ضربات أثينا إذا ما طلب العون والنجدة خارج هيلينا، بما في ذلك نجدة البرابرة لينقذ نفسه.) أما إمكانياتنا الذاتية، فإننا نريد تطويرها بشكل أفضل في المستقبل أيضاً. وعندما يفهمون رسائلنا فيما بعد، فإن ذلك سيكون أحسن؛ أما في غير هذه الحالة، فإننا سنستطيع في غضون سنتين أو ثلاث سنوات أن نصبح مسلحين بشكل جيد، ونتمتع بروح معنوية أصلب، وبالتالي سنتحرك لغزوهم إذا كنا نريد ذلك!

بل ربما سيستسلمون بشكل أسرع، إذا رأوا بأعينهم حجم تسلحنا المتطابق مع ما تتضمنه خطاباتنا وإنذاراتنا. وهذا في الوقت الذي يرون فيه أراضيهم وبلادهم مازالت لم تصبح قاعاً صفصفاً، وهو ما سيدفع بهم حتماً إلى الدخول في مشاورات، تتناول مابين أيديهم من الممتلكات والثروات التي لم تتعرض للتدمير والخراب بعد.

لهذا السبب فلا تعتقدوا أن ما قد يمكنكم السيطرة عليه من بلادهم وكأنه مجرد «رهن» فقط، تزداد قيمته بازدياد استخدامه على الوجه الأكمل، وأنه يتحتم على الإنسان صيانته والحفاظ عليه قدر المستطاع، كما لا يتحتم الدفع بهم إلى درجة من اليأس والقنوط قد لا يمكن التحكم بأي وسيلة في تداعياتها فيما بعد.

وعندما نكون نحن غير مجهزين بالسلاح المطلوب، ،يتم الدفع بنا عن طريق مظالم الحلفاء وشكواهم إلى غزو بلادهم بتهور واستعجال، وتدميرها وتقطيع أوصالها، فحينئذ يجب عليكم التفكير فيما يلي: ألَمْ نكن بذلك سنلحق بسكان بيلوبونيز فضيحة نكراء ونضعهم في مأزق حرج؟ لأنه يمكن للإنسان التدخل كوسيط لفضّ الشكاوي والنزاعات، سواء صدرت عن الدول أو عن المواطنين. إلاّ أن حرباً نود خوض غمارها فرادى وجماعات، والمسارَ المجهول الذي ستتخذه، قد يكون من الصعب حقاً توقيف رحاها، بشكل بارع مرة أخرى!

ولا يحق لأيٍ كان وصف هذا الموقف بالجُبن، حينما يرى الكثيرون منا عدم مهاجمة إحدى المدن باستعجال وتهور، لأن لقادتها وسكانها حلفاء أيضاً لا يقلّون عن حلفائنا ويدفعون إليهم الأموال. لكن الحرب ليست قضية أسلحة بشكل أكبر مما هي قضية تمويل! فالمال هو الذي سيساعد في البداية الأسلحة لتؤدي مهمتها، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بقوات برية، تقف ضد قادة متمرسين في المعارك البحرية، وهذا ما نريد العمل من أجله قبل كل شيء.

أما الحلفاء فلا يجوز لهم الدفع بنا في وقت مبكر إلى ارتكاب هذه الحماقة، عبر خطبهم النارية، وبما أننا نؤيد الوصول إلى مخرج من هذا المأزق، بعد أن يتحمل الطرفان مسؤوليتهما العظمى في ذلك، فإننا نريد أيضاً أن نفكر بهدوء وروّية في مخططاتنا وصيغها المتنوعة.

بل حتى تلك التُهم الموجهة إلينا بكوننا مترددين خائفين لاتسمحوا لها أن تصيبكم بالحسرة والندامة. إذ إنكم إذا استعجلتم الآن، فإن ذلك سيؤدي إلى تأخير النهاية، لكونكم تهاجمون وأنتم غير مسلحين، يضاف إلى ذلك أننا نعيش منذ أمد بعيد في مدينة حرة تُطبق شهرتها الآفاق، وفي هذا الوجود بالضبط تكمن الصرامة المتعقّلة.

لذا فنحن الوحيدون الذين لا تدفع بهم نشوة النصر بعد تحقيق هدف جيد، إلى مزالق الجريمة، والإساءة إلى الغير، كما أننا نحن الذين يخضعون بنسبة أقل من الآخرين لضربات القدر المصيرية.

كما أننا من أولئك الذين لا يقع التأثير عليهم عندما يحاول الإنسان الوقوف ضد أفكارهم بواسطة الإشادة والتنويه، ويريد التغرير بهم ليقعوا في حبال المخاطر والمهالك! إننا لا ننخدع بمثل تلك الإثارة للعواطف، ولا ترتفع انفعالاتنا

ونتحمس عبر الإثارة والاستفزاز، بل نحن أقل استجابة للحسرة والندامة، إذا أُمطرنا بمظالم أي شخص وشكواه.

إننا محاربون ومتشبعون في ذات الوقت بالأفكار الرشيدة، بسبب تربيتنا، لأن معظم الحياء يكمن أولاً في التروّي والتعقل، كما تكمن الشجاعة الحقة في التجنّب والتحاشي.

أما تشبعنا بالأفكار الرشيدة فيعود سببه إلى تربيتنا الساذجة التي تدعو إلى احتقار القوانين التي تتضمن صرامتها الكثير من السلوك والمواقف قد يدفع بالإنسان إلى عدم الخضوع لها، وهي لا تلقننا أن لا نصبح خبراء محنكين في الفنون عديمة الجدوى، كي نجعل حجم التسلح المعادي وقيمته أضعف وأقل بواسطة الكلمات المهيمنة. ومنذ القدم ونحن نسلح أنفسنا باطراد عبر الالتزام بهذا الموقف العملي، وهو كأنّ خصومنا وأعداءنا يتفوقون علينا باستمرار ذكاء ورجحان عقل وفي كافة الميادين والأشياء.

ولا يجوز أن نعلق آمالنا على أخطائهم فحسب، وإنما نعتمد على قدراتنا الذاتية ومنطلقاتنا الفكرية المسبقة ذات الضمانات المؤكدة. بل لا يجب على الإنسان أن يعتقد بأن هناك فرقاً «جوهرياً» بين إنسان وإنسان، لكن الأقوى منهما فعلاً هو الذي تتم تربيته في رحاب الضرورات القصوى.

ونحن نريد الحفاظ على هذا الانضباط التربوي المتنقل إلينا من الآباء والاجداد، والذي ضمن لنا الاستفادة منه في جميع الفترات، أننا سنتمسك به في المستقبل، ولا نريد تحت أي ضغط أن نتخذ في بضع ساعات من يوم واحد فقط قرارات مصيرية تطال الكثير من حيوات الناس، والكثير من الممتلكات والمدن، بل والكثير من الأسماء اللامعة أيضاً، وإنما نريد أن نفعل ذلك في هدوء تام ورويّة.

ونظراً إلى أوضاع قوتنا فيحق لنا فعل ذلك بنسبة أقرب. لذا فابعثوا إلى «أثينا» برسائل تتعلق بسكان بوليلديا، وأخرى تتعلق بالمظالم التي يعاني منها حلفاؤنا ويحتجون ضدها، لا سيما وأنهم مستعدون لتنصيب هيئة تحكيمية كذلك. ولا يسمح لأي شخص، اتُهم في السابق بانتهاك القانون، أن يشارك في هذه الهيئة ولا في إنشائها.

وفي ذات الوقت اعملوا على تسليح أنفسكم، لأن هذا القرار سيكون الأفضل، وهو الذي سيُرهب الأعداء في معظم الظروف.»

ترجمة: محمد المراكشي

إيراسموس Erasmus

لتجنح للسلام

عاش إيراسموس مابين ١٤٦٦ و ١٥٣٦، ويعد من كبار علماء الآداب القديمة والإصلاحيين للعقيدة المسيحية. كان مسالماً عن قناعة تامة. شرح بشكل مفصل في كتاباته العديدة عن موقفه الرافض للحرب.

إن كنت تعد العدة ساعياً للحرب، فما عليك إلاّ أن تمعن النظر ملياً في طبيعة كلٍّ من السلام والحرب، ما يفضي إليه هذا من نفع وما يؤدي ذاك، من الناحية الأخرى، إلى ويلات. وهكذا عليك أن تتروى إن كان يحسن بك أن تستبدل السلام بالحرب.

إن كانت قضية ما مبعث إعجاب حقاً، فإن ذلك ملكوت يزدهي بكل بهاء، على كافة الأصعدة، بمدن قائمة على الخير وحقول مزدهرة، وأفضل القوانين على الإطلاق، ونظام تربية مرموق وأنقى تغيير في الأعراف.

تأمل في الأمر جلياً؛ في أنك ستحطم سعادتك هذه كلها، إن حاربت. وعليه، فإنك إذا نظرت إلى أطلال المدن والقرى المهدمة والكنائس المندرسة والحقول المهجورة ومنظرها الذي يبعث على الرثاء، عليك أن تتذكر، أن كل هذا من عواقب الحرب. إن شعرت، أن عبثاً يقع عليك، وأنت تقود حثالة من المجرمين المرتزقة في بلدك، وتطعمهم من تعاسة مواطنيك، وتكون خاضعاً ومتزلفاً لهم، بل إنك تضع مصيرك الشخصي وسلامتك تحت تعسفهم، فلتكن على بينة، أن هذه من شروط الحرب. إن كنت تستفظع غارات السلب والنهب، فإن هذا بالذات ما تلقننا إياه الحرب، وإن كنت تلعن جرائم القتل، فإن هذا بالذات ما يُكتسب في ظروف الحرب. لأن من يتوجس من قتل إنسان في حالة الانفعال، سيستأجر لقاء عربون ضئيل، لقتل الكثير الكثير من البشر؟ حين يعني انتهاك القوانين هلاكاً محتماً للكيان العام، فإن القوانين ستصمت في ظل الحرب.

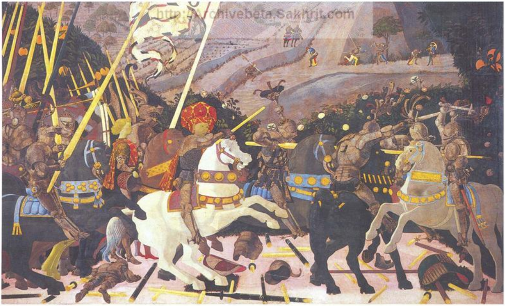
إن كنت تعد الاغتصاب وغشيان المحارم وغيرها من الفضائح وبأنها أكثر من فظيعة، فإن الحرب أستاذة لكل

ذلك. إن كان منبع كل منكر الجحود وزراية الدين، فإن هذا بالذات سيطمر تماماً، ما أن تدور رحى الحرب. إن كنت ترى، أنه ليس في صالح الدولة على الإطلاق، أن يتمتع أراذل الناس بنفوذ هائل، فعند اندلاع الحرب تكون الغلبة لأفظع المجرمين. وإن من ترسلهم في عهد السلام إلى أعواد المشانق، يتقلدون في زمن الحرب أرفع المناصب. من يا ترى يستطيع أن يقود القوات المحاربة عبر ممرات سرية بشكل أفضل من قاطع طريق محترف؟ من يا ترى يرغب في اقتحام البيوت بكل جرأة أو ينهب الكنائس غير لص أو ناهب كنيسة؟ من سيكون جريئاً إزاء العدو ويخترق بسيفه قلبه أكثر من قاطع طريق أو مجرم؟ من سيكون، بالطبع، خليقاً بإحراق المدن والحصون كالحارق المتعمد؟ ومن يستهين، كذلك، بأخطار الموج والبحار كالقرصان المحترف الذي أمضى زمناً في طلب الغنائم؟ إن أردت على ما يبدو أن ترى، أي جحود هي الحرب، فعليك أن تدرك طبيعة من يخوض الحرب. حين لا يكون لدى الحاكم الورع شيء أعز من سلامة مواطنيه، تكون الحرب أبغض ما عنده. حين تكون سعادة الحاكم، أن يحكم وهو قرير العين، فينبغي أن يكون حريصاً على السلام كل الحرص. وحين تكون الرغبة الخاصة لحاكم صالح أن يسود على قوم كرماء، فإنه سيلعن الحرب، التي لا ينبثق عنها سوى رعاع ديدنهم الخسة. حين يكون حريصاً على كل ما يملكه المواطنون، كما لو أنه ثروته الخاصة، فإنه سيتحاشى بكل الطرق حرباً، حتى وإن انتهت لصالحه تماماً، فإنها ستفني، يقيناً، ثروات كل الناس ويجري إنفاق، ما تم كسبه من حرفة شريفة، على شلة شريرة.

إنه من نافلة القول التذكير باستمرار بما يلي: كل إنسان مغتر بما لديه من دوافع ويتطلع مبتسماً إلى آماله، على الرغم من أن السبب، الذي يبدو للساخط محقاً، كثيراً ما يكون مجحفاً تماماً، والأمل غالباً ما يكون خادعاً. إذن عليك أن تفكر بسبب مشروع، وتصور أن خاتمة الحرب ستكون سارة كل السرور، ثم أحسب كل الخسائر التي ستحدثها الحرب

وما الحربُ إلا ما علمتمْ وذقتمُ ... وما هُوَ عنها بالحديثِ المرجّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ إذا ضرّيتموها فتضرمِ
فتعرككمْ عركَ الرحى بثفالها ... وتلقحْ كشافاً ثمّ تحملْ فتُتئمِ
وتنتجْ لكمْ غلمانَ أشأمَ كلّهم ... كأحمرِ عادٍ ثمّ ترضعْ فتفطمِ
فتُغللْ لكمْ ما لا تغلُّ لأهلها ... قرىً بالعراقِ من قفيزٍ ودرهمِ

زهير بن أبي سلمى



Paolo Ucello: The Battle of San Romano. © National Gallery, London.

والمنفعة التي سيحققها النصر، وانظر، إن كان النصر جديراً بكل ذلك. قلما يتحقق النصر من دون إراقة دماء. ها أنك قد ضرجت انتصارك بدماء بشرية. عدا ذلك عليك أن تأخذ بنظر الاعتبار تردي الأخلاق واضمحلال الآداب العامة، التي لن تعوض بأي ربح على الإطلاق. إنك تفرغ خزائن الدولة وتسرق الشعب، تثقل على الطيبين وتحرض الغشاشين على ارتكاب الجريمة، لكن عندما تلقي الحرب بأوزارها لا يمكن تجاوز مخلفاتها حالاً. أما العلوم فإنها تخسر ما تبوأته من مكانة ومقام، كما تتقلص النشاطات التجارية. ولكي تضيق الخناق على عدوك، تجد نفسك مضطراً إلى أن تقوم قبل ذلك وبكل نزق بحرمان نفسك من مناطق كثيرة. قبل الحرب، كانت كل البلدان المجاورة مفتوحة أمامك، لأن السلام حوّل كل شيء عبر تجارة البضائع إلى خير مشترك. انظر، ماذا صنعت بنفسك، فلم يعد، الآن، في متناول يدك، ما كان بالأمس طوع إرادتك. كم من الآلات والخيام ستحتاج لتدمير بلدة صغيرة واحدة؟ ينبغي عليك أن تبني مدينة مؤقتة، كي تستطيع مقابلها تحطيم مدينة قائمة فعلاً، بيد أنك على عكس ذلك تستطيع بتكاليف أقل إنشاء مدينة ثانية حقيقية. ولكي تحول دون تمكن العدو من مغادرة المدينة، فانك تنام في العراء بعيداً عن الوطن. كما أن بناء أسوار جديدة سيكلف أقل بكثير من تقويض الأسوار القائمة بواسطة ماكينة الحرب. لا أريد، الآن، أن أجمل كم من المال سرق من قبل المحصلين ومديري الخزائن وقادة الجيش، وهذا قطعاً ليس بجزء يسير. لو قمت بتقدير كل شيء بطريقة تتوخى الدقة في التفاصيل، ستجد أنه كان يمكن أن يفتدى السلام بعُشر هذه النفقات. لكنك تعتقد، إن أنت عفوت عن إهانة ما، ستخسر شيئا من شجاعتك البطولية؛ على العكس من ذلك، ليس هناك ما هو أدل على القنوط وعلى ضعف شخصية الملك أكثر من السعي لأخذ الثأر. إنك ترى، أن ذلك سينال من كرامتك، إن قمت بإجراء مفاوضات مع أمير من بلد مجاور، قد تربطك به رابطة رحم أو مصاهرة، ربما كان عدا ذلك يخطب ودك، لكي تتنازل عن شيء من حقك. إن بدا لك السلام، الآن، باهظ الثمن بشكل أو بآخر، فلا تتصور أبداً، أن هذا سيكون إسرافاً، إنما قل لنفسك: سأضحي بهذا الثمن الباهظ من اجل السلام.

ترجمة: علي أحمد محمود

مونتيسكيو Montesqieu

موضوعات حول الحرب

مقتطفات من كتاب «روح القوانين»

عاش الفيلسوف والكاتب الفرنسي مونتيسكيو مابين ١٦٨٩ و ١٧٥٥ ميلادية، واشتهر من خلال «رسائله الفارسية»، التي أدان فيها شن الحروب؛ لكنه في كتابه الهام «روح القوانين» وضع الحجج القائلة: إنّ شن الحرب، ضمن ظروف خاصة، من الممكن أن يكون أمراً مشروعاً.

حول الحرب

إنّ حياة الدول تشبه حياة البشر. فللبشر في حالة الدفاع الطبيعي عن النفس، الحق في القتل؛ وللدول الحق في إعلان الحرب، كلما تعرض وجودها للتهديد.

في حالة الدفاع الطبيعي عن النفس، أملك حق القتل، لأن حياتي ملكي الخاص، تماماً كما أن حياة مهاجمي ملكه الخاص به. وبالمثل تخوض دولة حرباً، لأن وجودها شرعي، مثل وجود كل دولة أخرى. ولا يقتضي حق الدفاع الطبيعي بين مواطني الدولة بالضرورة الهجوم كنتيجة له. فبدل أن يهاجم الواحد الآخر، لا يحتاجون سوى التوجه إلى المحكمة. انهم يحتاجون حق الدفاع هذا فقط في الحالات المفاجئة، التي يمكن للمرء فيها أن يفقد حياته، اذا ما انتظر المساعدة من القانون. ونستنتج من هذا، بأن المجتمعات الصغيرة تملك في أغلب الأحيان الحق في إعلان الحرب بالمقارنة مع الكبيرة، لأنها ستجد نفسها غالباً في حالة تدعوها إلى الخوف على وجودها.

إنّ الحق في إعلان الحرب ينبع، بالتالي، من الحاجة ومن الضرورة الشرعية. واذا لم يلتزم رجالات الفكر ومستشارو

الحكام بهذا الإطار، فإن كل شيء سيعرف طريقه إلى الضياع. وعندما يرتكز المرء على مبادئ المجد والصيت العظيم والمصلحة الاعتباطية، فان أنهاراً من الدماء سوف تغسل وجه الأرض. وعلى المرء خاصة أن يتجنب الحديث عن مجد الأمير وإلاّ أضحى مجد الأمير طموحه. والطموح شهوة وليس حقاً شرعياً.

صحيح، أنه من شأن الصيت العظيم لسلطته أن يزيد من قوة دولته، ولكن ليس أقل من ذلك الصيت العظيم لعدالته.

حول حق الغزو

إن حق الغزو ينبع من حق الحرب، ويعتبر نتيجة له، ويتوجب عليه أن يتبع نفس الروح.

فعندما يتم غزو شعب ما، فإن حق هذا الشعب على الغازي يقوم على أربعة أنواع من القوانين: قانون الطبيعة، الذي يتمثل في ضرورة الحفاظ على النوع؛ قانون النور الطبيعي، والذي يلزمنا بمعاملة الآخرين كما نحب أن تتم معاملتنا؛ القانون الذي يكون المجتمعات السياسية، والتي لم تحدد الطبيعة عمرها؛ وأخيراً القانون المشتق من الشيء ذاته. الغزو تملك؛ وروح التملك تتضمن روح المحافظة والاستعمال وليس روح التدمير.

حين تغزو دولة دولة أخرى، فإنها تعاملها بطريقة من الطرق الأربعة التالية: تستمر في حكمها حسب قوانينها، ولا تحتفظ لنفسها إلا بحق ممارسة الحكم السياسي والمدني؛ أو أنها تمنحها حكماً سياسياً ومدنياً جديداً؛ أو أنها تدمر المجتمع، وتشتته في مجتمعات أخرى؛ أو أنها تعمد أخيراً إلى إبادة كل المواطنين.

الطريقة الأولى تتفق مع القانون الدولي الذي نتبعه في أيامنا هذه، أما الرابعة فتتفق مع القانون الدولي في عهد الرومان: ويحق للمرء أن يحكم إلى أي حد أصبحنا أفضل من ذي قبل. يتوجب علينا هنا أن نحيي أزمنتنا المعاصرة، العقل الراهن، فلسفتنا وأخلاقنا.

ففقهاء قانوننا العام، الذين اعتمدوا في ذلك على التواريخ القديمة، والذين انطلقوا من أوضاع قاسية، وقعوا في أخطاء كبيرة. لقد أرجعوا كل شيء للاعتباط، ومنحوا الغزاة حقاً، لا أعرف ما هو، في القتل، وما يسفر عن ذلك من نتائج رهيبة مثل المبدأ ذاته، وسنّ قوانين، لو امتلك الغزاة القليل من الحس السليم، لما عملوا بها. ومن الواضح أنه في حالة إتمام الغزو، لا يعود للغازي الحق في القتل، لأنه لم يعد يتواجد في حال الدفاع الطبيعي، ولا يحتاج لذلك من أجل الحفاظ على وجوده.

ما جعلهم يفكرون بمثل هذه الطريقة، هو أنهم اعتقدوا أن الغازي يمتلك حق تدمير المجتمع، واستنتجوا من ذلك أن له حق تدمير البشر الذين يكونون هذا المجتمع، ولكنه استنتاج تم استنباطه بطريقة خاطئة من مبدأ خاطئ. فتدمير المجتمع لا يقتضي بالضرورة تدمير البشر الذين يكونونه. إن المجتمع يمثل وحدة البشر، وليس البشر أنفسهم. كمواطن يمكن للمرء أن يبيد، ولكن ليس كإنسان.

ومن حق القتل في الغزو، استنبط السياسيون حق تحويل البشر إلى عبيد. لكن هذه النتيجة خاطئة خطأ المبدأ نفسه.

يمتلك المرء حق تحويل البشر إلى عبيد، فقط إذا كان ذلك الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الاحتلال. هدف الاحتلال هو تأمين الوجود. الاستعباد لم يكن أبداً بهدف للاحتلال، ولكن قد يحدث أن يكون الوسيلة الوحيدة من أجل تأمين الوجود.

وفي هذه الحال، فإن تأبيد هذه العبودية يتعارض مع طبيعة الأشياء. يجب أن تكون هناك إمكانية للشعب المستعبد أن يصبح حراً. إن العبودية في الغزو حدث عارض. فبعد مدة من الزمن، سترتبط فرق دولة الاحتلال بفرق الدولة المحتلة، عن طريق عادات وعقود زواج وقوانين وعقود تجارية وبنوع من الانسجام الروحي، وهنا يتوجب أن تتوقف العبودية. إن حقوق الاحتلال لا تملك صلاحيتها، إلا إذا لم يحدث مثل هذا التقارب، وظلت الفرقة الكبيرة قائمة بين الأمتين، بحيث لا تثق الواحدة بالأخرى.

وهكذا، فإن الغازي الذي يستعبد شعباً ما، عليه أن يستبقي لنفسه الوسائل، وما أكثرها، من أجل إخراجه من هذه العبودية.

إنني لا أشطّ هنا في الكلام. فآباؤنا تصرفوا بمثل هذه الطريقة لما غزوا الامبراطورية الرومانية. لقد عملوا على تلطيف القوانين التي سنوها زمن الحرب والعنف ولحظة الزهو بالنصر، كانت قوانينهم قاسية، فجعلوها منصفة. وعند البورغونيين والقوطيين واللومبارديين توجب على الرومان أن يعيشوا دائماً كشعب مهزوم، لكن قوانين Euric و Gondebaud و Rotharis جعلت من البرابرة ومن الرومان مواطنين.

ومن أجل اخضاع الساكسن، حرمهم شرلمان من الحرية وحق التملك. لويس الطيب أعتقهم: إنه لم يقم بشيء أفضل من ذلك طيلة مدة حكمه. الزمن والرق لطفا من أخلاقهم. ولقد ظلوا له دائماً أوفياء.

عن جمهورية غازية

أن تعمد دولة كونفدرالية إلى احتلال دولة أخرى، كما رأيناه في أيامنا هذه عند السويسريين، هو ضد طبيعة الأشياء في النظام الفدرالي. لكن الأمر يصدمنا بدرجة أقل في الجمهوريات الفدرالية المختلطة، حيث العلاقة قائمة بين جمهوريات وممالك صغيرة.

ويتعارض أكثر من ذلك مع طبيعة الأشياء، أن تحتل دولة ديمقراطية مدناً أخرى، لا يمكن دمقرطتها. ويتوجب أن يتمتع البلد المحتل بإيجابيات السيادة، كما فعل ذلك الرومان في بداية حكمهم. وعلى المرء أن يحصر الغزو بعدد المواطنين الذين يحتاجهم للديمقراطية.

أو إذا ما غزت دولة ديمقراطية شعباً ما من أجل حكمه، فإنها تعرض حريتها للخطر، ذلك أنها سوف تمنح سلطة كبيرة للموظفين الذين ستبعث بهم إلى البلدان المحتلة (...).

متابعة لنفس الموضوع

هناك أيضاً سلبية أخرى للغزوات التي تقوم بها الديمقراطيات. فالدول المستعبدة تظل دائماً تحقد على حكومتها. إنها ملكية من ناحية المصطلح، ولكنها في الواقع أقسى من الملكية، كما أوضحت ذلك تجارب كل الأزمان وكل الدول.

الشعوب المحتلة هي في وضع حزين. إنها لا تتمتع لا بإيجابيات الجمهورية ولا إيجابيات الملكية.

ما قلته عن الدولة الشعبية يصدق أيضاً على الأرستقراطية.

وهكذا، فإنه حين تعمد جمهورية إلى الحفاظ على تبعية شعب ما لها، فيجب عليها أن تبحث أمر إصلاح ما ينتج عن ذلك من سلبيات، بإعطائه حقاً سياسياً جيداً وقوانين مدنية جيدة.

كانت جمهورية في ايطاليا تحكم سكان كورسيكا، لكن قانونها السياسي والمدني بحقهم كان مجحفاً. إن المرء يتذكر قرار العفو العام الذي دعا إلى عدم الحكم عليهم بالعقوبات البدنية، فقط لأن الحاكم يملك القناعة الأخلاقية باجرامهم. لقد رأينا غالباً شعوباً تطالب بامتيازات، ولكن هنا أقر الحاكم حقاً لكل الأمم.

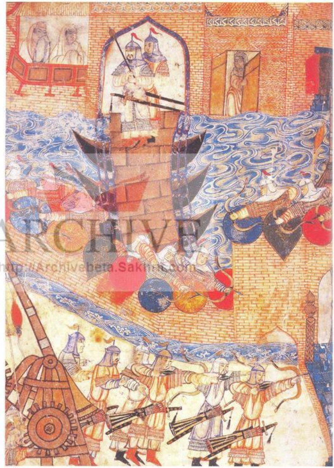
عن أخلاق الشعوب المهزومة

لا يكفي، في مثل هذه الغزوات، أن يترك المرء للأمة المهزومة قوانينها؛ بل الأهم من ذلك أن يترك لها أخلاقها، لأن أي شعب يعرف، كيف يجب أن يدافع دائماً عن أخلاقه أكثر من دفاعه عن قوانينه.

لقد تم طرد الفرنسيين تسع مرات من ايطاليا ـ يقول المؤرخون ـ بسبب من وقاحتهم اتجاه النساء. فكثير بالنسبة لأمة أن تعاني زهو المنتصر، وأكثر من ذلك شبقه، والأكثر من ذلك تطفله، الذي هو بلا شك أكثر إثارة للغضب؛ إنه يضاعف الاهانات بلا حدّ.

ترجمة: رشيد بو طيب

مونتيسكيو: روح القوانين ـ الكتاب ١٠



غزو بغداد

"The Conquest of Baghdad". Illustration from the Diez Albums, Iran, 14th century. Staatsbibliothek Berlin. Reproduction from the catalogue: "The Legacy of Genghis Khan". Exhibition at the Metropolitan Museum of Art and the Los Angeles County Museum of Art (until 27th of July 2003).

تصف اللوحة الغزو المغولي لبغداد. وقد تم تبسيط بعض عناصرها لأغراض زخرفية. فمياه النهر والخندق حول السور الدفاعي رسمت أيضاً بطريقة زخرفية مستوحاة من الفن الصيني. هذه النماذج التي توحي بالمياه الجارية، والأشكال والألوان ودروع المقاتلين الموضوعة بطريقة منتظمة حول سور المدينة، رسمت أيضاً بطريقة زخرفية مبسطة.

هاينريش بول Heinrich Böll

رسائل من الجبهة

هاينريش بول (١٩١٧ - ١٩٨٥)، الحائز على جائزة نوبل للآداب، كان جندياً عادياً ولمدة ستة سنوات في الجيش الألماني. في السنوات الأخيرة نُشرت له ولأول مرة رسائله التي تتجاوز الثمانمائة رسالة والتي كتبها أثناء خدمته العسكرية ومشاركته في الحرب العالمية الثانية. رسائله تعد وثيقة (لرؤية بول الموحشة) ووثيقة عن حياة الجنود في الحرب.

والدي العزيزين .. إخوتي الأعزاء

فرنسا في ٧ آب ١٩٤٠

بعد مسيرة مئة وخمس عشرة ساعة وصلنا بالأمس إلى المكان المحدد لمهمتنا. ثم زحفنا من بلدة فرنسية صغيرة تحت وطأة شمس الصيف اللاهبة، مثقلي الظهور بالجرب اللعينة، زهاء عشر كيلومترات، لنعسكر في قرية صغيرة. ما زالت القرية توشك أن تكون مهجورة تماماً، بعد أن عاد إليها عدد ضئيل جداً من القرويين. الناس هنا، على العموم، طيبون، لكنهم واعون جداً لكرامتهم؛ لا نرى هنا غير النساء والأطفال والرجال الطاعنين في السن، الذين يسعون جاهدين إلى مواصلة استزراع جزء يسير من الأرض. إني أستطيع هنا، بما تعلمته من اللغة الفرنسية في المدرسة، أن أتفاهم مع الناس بشكل جيد؛ صباح الأمس واليوم قمت بالتبضع بالحليب والزبد والبيض، وكلما حاولت أن أعبر للنساء عن شيء من العطف، فإنهن يهززن فقط رؤوسهن باستسلام ويرددن: "إنها الحرب، الحرب الثانية في وطننا." إنّ ما رأيناه من تدمير وتخريب خلال ساعات النهار القليلة، التي سرنا فيها، لا يصدق بالفعل. بيد أن المساكن كانت أقل عرضة للتدمير، خاصة حين تقع في مكان لا يمكن تحاشيه، كأن تكون بالقرب من مخزن وقود أو مصنع، كما سلمت أغلب الحقول أينما كانت، بغض النظر عن بعض الحفر التي خلفتها القنابل، وقد رأيت ميدان قتال ضخماً وحيداً قرب أحد الجسور على نهر الزوم، حيث الحقول والمروج قد حولتها الدبابات والعربات المدرعة إلى خراب وما زالت العربات التي اخترقها الرصاص متناثرة هنا وهناك برمتها وقد اعتراها الصدأ. كما تبدو جميع محطات القطار في وضع يبعث على الفزع، ومما يزيد من بشاعة المنظر، الخصوبة الرائعة التي تضفي حلتها على الطبيعة الفرنسية. بيد أننا لو جمعنا، كل ما وقع أمام أعيننا على امتداد خطوط السكة الحديدية من بنايات تعرضت للقصف، فإن حصيلة ذلك ليست بالكثيرة، مثلما شاهدنا في روتردام بعضاً منها في حالة أقرب إلى الظلمة، وأدركنا بعضها الآخر؛ تخيلوا، أن كل ما هو واقع في مدينة كولونيا بين الرنغن والراين (أي المدينة القديمة برمتها) يضاف إليها زهاء مئة متر من المدينة الجديدة، قد سوي بالأرض، وإنكم تعبرون إلى هناك بواسطة جسر سكة الحديد الذي يقع على ارتفاع عشرة أمتار، كان مكاناً أشبه بالجحيم حقاً. ثم شاهدنا الأضواء ترتعش هنا وهناك في أقبية البيوت المهدمة، وظلال الناس الباحثين عن شيء ما. ليس هناك ما هو أكثر فظاعة من الحرب.
خاصة لإنسان يتعامل مع محيطه داخلياً، فإن ذلك يعد الرعب بعينه...
عندما نتطلع إلى مثل هذه الأمور، تصبح مسألة التفكير بما هو حق وظلم جنوناً مطبقاً بالفعل، إن مجرد التفكير بحد ذاته يكاد يكون جريمة بحق العقل؛ بل أنني أعتقد أبعد من ذلك، أننا نغبط الحيوان، لأنه ليس له عقل يثقل عليه.

رغم ذلك أجدني مسروراً، وإن بدا ذلك لا يحتمل التصديق، لأنني ابتعدت عن مدينة برومبرغ، حين أذكر ذلك الآن، أشعر وكأن كابوساً من البلادة يستحوذ عليّ.

كنا سعداء الحظ لحد ما بحصولنا على المأوى الحالي. كنا ثلاثة رجال نقطن في غرفة صغيرة لصبي أو فتاة في بيت ريفي فرنسي مهجور. إنها خالية من الأثاث، لكن توجد في إحدى أركانها أصناف من الأمتعة القديمة التي تفضح غايات قديمة استخدمت لأجلها هذه الغرفة: سلة الأشغال اليدوية، بضعة رفوف، دمى قديمة، روايات لباول بورغه، مشد عتيق، رسائل متنوعة إلى إحدى الأوانس، وبطاقات زيارة. على حد قول الناس، قام الإنكليز بنهب كل شيء هنا. لم يعد هنا ما يمكن اقتناؤه، حين تروم الحصول على سجاير أو خمر، عليك أن تبحث عن مقصف للقوات الألمانية. هناك يباع الخمر، الذي يحتمل انه تم الحصول عليه مجاناً، بأسعار فاحشة.

أثناء تحركنا، بالأمس من محطة القطار، إلى هنا، مررنا في طريقنا بأربع مقابر للجنود، اثنتان منها للألمان والإنكليز من عام ١٩٤٠ ومقبرتان للفرنسيين من عام ١٩١٨ و ١٩٤٠ .

تمكث هنا بانتظار إلغاء وحدتنا وتوزيعنا على الفيالق التي طالبت بالتحاقنا بها: نأمل أن يتم نقلنا من هنا بالسيارات؛ لكنه سيكون جميلاً أيضاً، حين نحصل على يومي استراحة بعد رحلة مضنية بالقطار، لكنكم تعرفون بالتأكيد أن ربع كيلو القهوة المعد خصيصاً للوالدة أصبح جاهزاً. بيد أني لا أستطيع إرساله، قبل أن يتم توزيع وحدتنا، حينذاك يكون من الممكن إرسال ستة طرود صغيرة شهرياً إلى البيت، وزن كل منها ربع كيلو. لكن حلم الحصول على القهوة أصبح للأسف في خبر كان. إذ لا يوجد هنا شيء على الإطلاق، لحسن الحظ حصلت على ما عندي من القهوة في بلجيكا. أرق التحيات القلبية لكم جميعاً.

هاينريش

هاينريش بول يكتب إلى صديقته أناماري كش — مونغرسدورف في ١٧ شباط ١٩٤١

عشت صباح اليوم "حياة رائعة"، بل "باذخة"؛ تهربت من الذهاب إلى العرض السينمائي، في انتظار الجنرال ـ هل أنا مجرم، لأني أعبّر عما عندي بلا مهابة كضابط صف؟ ـ كنست على عجل ونظفت، فيما عدا ذلك قرأت رواية بوليسية «حالة دروغا». ثم حضر الجنرال الذي يوحي مظهره بوقار لحد ما، اطلع على كل شيء، ثم طرح ما شاء له من الأسئلة، ثم مضى. أتعلمين، ماذا سألني، ماذا سألني الجنرال أنا بالذات: "ألا تحب أن تكون جندياً، يا بني؟" صمت بشجاعة في حضرة نصف دزينة من كبار الضباط، رغم أن "نعم، صدّقت" كانت تريد أن تفلت من لساني بكل تلقائية وعبودية. تخيلي، أنني كنت أحمل على ذراعي الأيسر نجمة غاية في الصغر، أما هو فكانت ياقة معطفه الحمراء تتلألأ والكثير الكثير من الذهب يرصع حلته، لكني صمت ...والسيد الجنرال أدار ظهره متنحياً . . . (. . .)

من هاينريش بول إلى زوجته أناماري — فرنسا في ٢٥ تموز ١٩٤٢

(. . .) الآن، في عصرية هذا اليوم أجدني هنا في مخبأ لبضع سويعات، لأحل محل من سيرتادون السينما؛ آه، أنا سعيد حقاً في عصرية هذا السبت، بيد أنه سيكون معذباً جداً، حين تزف ساعة العودة إلى مواقعنا الاحتياطية الرثة، بينما نحن الآن في مخبأ جميل على الساحل الناتئ؛ والبحر السديمي الرائع، هذا العنصر العظيم، ومن خلفنا الربى الخفيضة الرائعة التي يتمايل فوقها العشب. آه، كم كان جميلاً، حين كنا نعسكر هنا في «الخط الأمامي». يا ليتنا نستطيع ذات مرة أن نعود إلى هنا، كم سيكون ذلك ساراً . . .

في هذه الأثناء عاودت القراءة في طبعة جيب عن دار ركلام، بعـد فترة انقطاع طويلة، كانت تضم بضعة قصص قصيرة، ليـست بمستوى جيد جداً، كانت شهـوانية بعض الشيء، لكنها كانت شيئاً مخـتلفاً بكثير عن أداء خدمة بليدة ومستمرة.



Photo: © Siegfried Pater, Bonn.

هاينريش بول، ١٩٤٠.

نحن لا نعـرف هنا غيـر الزعيق، والصـراخ وبلا استراحة ولو لدقيقة واحدة حتى التاسعة والنصف ليلاً. فأنا لم أحـصل بالفعل على اسـتراحـة قبل العـاشـرة ليـلاً؛ مع ذلك تجـدني أكـتب كل يوم رسالتين على الأقل، وهذا يـستـثيـر، في كل مرة من جديد، اندهاش وحنق جل رؤسائي، بيد أني ما أزال مستمراً على الكتابة اليومية، حتى لو كنت على فـراش الموت وحـتى لو قـام كل مـسـؤولي قطارات الجيش الألماني بقطع أعناقهم . . .

أحضر كل مساء إلى حجرة مسؤول القطار حاملاً رسائلـي، حتى لو كـانت ساعات الـنهار مشـقلة بالعمل، التـدريب، النداءات، والنداءات الليلية. أكتب لك، باسـتمرار، رسـالة واحدة على الأقل وأسعى قـدر المستطاع لكـتابة أخرى إلى الـبيت؛ وهذا يثير حفيظة الآخرين بطريقـة مبالغ فيها، بما فيهم الملازم الثاني الذي يـرى، أنه لا ينبغي كتابة الكثير من الرسـائل، لأن ذلك يكشف الكثير من الاهتمامات الشخصية.

لم أعد قائداً للفصيل، إنما أصبحت ببساطة حامل بندقيـة ضمن فـصيلي القـديم؛ ربما كان هذا هو سبب سعادتي. لقد التحقت في هذه الأثناء أعداد كبيـرة، مؤهلة بشكل أفضل مني لقيـادة الفصيل، وهكذا تنحيت عن هـذه المسؤولية، التي أقـوم بها لساعـات عند غياب قائـد الفصيل؛ وأنا سعـيد، ذلك لأني لا أتمتع بأي كفاءات عسكرية على الإطلاق. يبدو البحـر، هذا اليوم، هائجاً والرياح تهب إلى هنا، عبر مرتفعات الساحل الناتئ باسـتمرار، وقد بلغت شدتها ستّ درجات. يؤسفني أني لا أستطيع أن أرى شيئاً من إنكلتـرا من مكاني هذا؛ كان سيسعدني لو استطعت أن أرى مرة أخـرى صخور دوفر، التي شاهدتها عيناك أيضاً . . .

إني أتوق إلى حياة تتسم بجوع وحشي ومؤلم؛ أكاد أشرع في البكاء بفعل الشوق المعذب، بمجرد أن أفكر بحفلة موسيقية جميلة أو بحفيف أوراق شجرة في الصيف، أو بأمسية هادئة على شاطئ الراين أو باحتفال جاد في احد المعارض. (. . .)

ربما سمعت ذات مـرة حديثاً عن الجنود العنيدين، الـذين يتحملون كل شيء بصبـر وأناة، تذكري دائماً، أنني واحد من هؤلاء؛ لأننا نسمح بأن يمارس معنا كل هذا الزعـيق وكل هذا السخف، وتكاد لا تهتز مني شعرة واحدة. إنني أتصور نصيبي في ذلك باستمرار. . .

دائما، حين يُعنف أمرؤ ما، تكون لدي رؤية ساذجـة، بأنه ملقى في مكان ما في العشب وينزف جريحاً، أو ربما يكون ميتاً وقد انحنى رأسه إلى الأمام فوق بندقـيته في مكان ما، وقد تعاد رسائله مذيلة بملاحظة: قتل من أجل ألمانيا العظيمة.

دائماً، دائماً أفكر بأن أحـداً، وقد أكون على حق آلاف المرات، قد أغلظ له القول، ولهـذا أيضاً لم أعد قادراً على أن أكون قائداً للفصيل . . .

أنني متعب جداً إثر مسيرة إلى مقرنا الجديد، لم تكن بأكثر من خيبة فادحة. ربما لأني احتسيت الكثير من النبيذ . . .
عقدت هنا صداقة مع روسي مقيم في فرنسا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ إنه يساهم في إطفاء شيء من عطشي إلى النيكوتين، إذ يهديني تبغاً، تصوري أن روسياً في فرنسا يهديني تبغاً عام ١٩٤٢! هذا يعد بالفعل أشبه بمعجزة! بيد أنه حقيقة! لذا سأقدم له غداً كل حصتي من الخبز؛ سأفعل ذلك، رغم أنني أتضور جوعاً؛ لتذكري فقط أن روسياً قد أهداني في عام ١٩٤٢ تبغاً !!
(. . .)

من هاينريش بول إلى أناماري الجبهة الغربية في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٢ /عيد الموتى

(. . .) اليوم شهدت يوماً جميلاً وممتعاً للغاية، رغم أني كنت ثلاث أو أربع مرات مبتلاً وكدت أموت من شدة البرد. خرجنا هذا اليوم، في السحر، سرنا بجواد وعربة متمهلين في عباب الضباب، وما زالت الظلمة تغمر الجسر الخشبي الضخم الذي يمتد فوق نهري السين والار، كان عالم شبحي على ارتفاع كبير لحد ما وعربتنا تبحر كالجندول فوق النهر متأرجحة ومن ثم وصلنا إلى عزبة، في البداية كانت إلى غرفة الجلوس، حيث كان الفلاح يتناول الفطور مع عائلته، كان شيئاً رائعاً، أن تجلس أمام المدفئة وتدخن الغليون وأنت تتفاوض حول سعر التفاح! ثم رحنا إلى مخزن ضخم جداً مملوء بالتفاح المطعم تطعيماً كلياً، بحيث كادت تسكرنا رائحته الزكية الحلوة، ثم قمنا بتحميل العربة بطنين من التفاح، دفعنا ثمان ماركات عن الطن الواحد، بعدها انطلقنا مبحرين وسط الضباب والبرد. كنا نرتعد برداً، والفلاح الذي اضطررت أن اكشف له مهنتي١، كان يناديني ضاحكاً: "من الأفضل أن تدرس حياة العسكر!" كان رجلاً فاضلاً، بديناً، ذا عيون واسعة وجميلة، يشيع محياه فخراً وسروراً وطمأنينة، كان، في الواقع، ملكاً، وقد خيل لي، أن وضعي يدعو للشفقة، كجندي صغير يعاني من البرد، ويدخن تبغاً رخيصاً؛ احتسينا أثناء الطريق قدحاً من العرق اللذيذ الباعث للدفء في أوصالنا، وهكذا واصلنا مسيرتنا على طريق زراعية ضيقة، غارقة في الضباب وشبيهة بممر خشبي صغير فوق الماء. كانت تسمع قرقعة السوط، والولد يهدر مهمهماً مدمدماً مع جياده؛ آه، إني أفكر طيلة الوقت، أن هذا اليوم هو عيد الموتى .(. . .)
لكني محرومٌ من أي استراحة؛ أثناء ساعات الظهيرة عليّ أن أبحث عن دراجة هوائية، وهي مهنة شاقة، وأن انطلق بها بعد الغداء مباشرة للحصول على رأس من الغنم لمطبخنا، آه، يا لها من رحلة! لقد ذكروا لي أن راعياً، يتسكع هنا وهناك مع عشته وقطيعه الصغير؛ عليه أن يبيعنا خروفاً؛ ولم نكن نعرف على الإطلاق، إن كان يدعى "يولين" وأين هي الناحية على وجه التقريب التي يتسكع فيها مع قطيعه. آه، كانت أمطار عزيرة تنهمر ونحن نتسكع على الطريق الزراعي، بين حقول وعبر غابات تكاد تختنق بخضرتها، نحتسي الخمر في أغلب الحانات التي نمر بها، وأخيراً، أخيراً بعد الإلحاح في السؤال اهتدينا إلى كوخه. ثم سرنا نخترق الحقول والمزارع والمروج وأخيراً اقتربنا من غلام يافع أشقر، يدخن غليوناً، وتهتز شعرات لحيته غير الحليقة، وما أن نقلت له طلبنا، حتى سمح آنذاك بأن نقدم له سيجارة، ثم نادى على كلابه وهمس لها بكلمات قليلة خافتة، وجرت مسرعة كالمسكونة حول القطيع، لتحشره أمامنا؛ آه، كل هذه الرؤوس الشاحبة من الأغنام توجه أنظارها نحونا، متعبة وحزينة بشكل بليد نوعاً ما. انتقينا خروفاً سميناً - كان معنا جزاراً - ، وهنا بدأت المفاصلة الرائعة مع الفتى الأشقر الذي كان لديه متسعٌ كبيرٌ من الوقت وأعصابٌ كالسلك المعدني، بيد أننا كنا على عجلة من أمرنا، فكنا نلح عليه بشدة وبلا هوادة، حتى خفضنا السعر من ١٥٠٠ إلى ٩٠٠ فرنك، حقاً، لقد استغرقنا الأمر زهاء ساعة. آه، لقد خر على الأرض كالشجرة المتداعية، حين قدمنا له رزمة من الأوراق النقدية من فئة الـ مائة فرانك. (. . .)

(. . .) كنت أنسى باستمرار أن أجيبك بشأن الخف. نعم، أنا سعيد جداً في أن أقتني خفاً، إنه مريح، خاصة حين يكون عليّ أن ارتدي طيلة النهار جزمة ثقيلة، لذا فأنا أرجوك، إن كان ذلك ممكناً . . .

إنه بالفعل شعور خيالي، حين أقدر، كما هو الآن، أن أنام حتى الثامنة والنصف في أيام الآحاد في سرير وثير وأنهض بوعي من لا يحتاج إلى أداء الخدمة طيلة النهار، آه، لكننا بالطبع هنا نعمل أيضاً حتى في أيام الآحاد، بيد أن العمل ينشأ بالأساس أثناء وجودنا في المكتب، عدا ذلك ليس هناك الكثير مما يمكن القيام به، لأن الفرنسيين مولعون بالراحة خاصة في أيام الآحاد؛ حين أفكر، بأن من أدوا الخدمة قبلنا لمدة سنتين هنا، كانوا يتمتعون بإجازة لثلاث مرات في السنة، أجد أن حياتهم كانت أفضل من حياة الجنود، الذين حالفهم الحظ في أن يكونوا في ألمانيا!

نحن هنا في مصب نهر منبسط وضخم، ضخامة بحيرة، لكنه يخضع للمد والجزر، وتلوح في المقدمة قمم يميناً ويساراً، كلا الرأسين وبينهما سعة البحر التي لا تقاس، والتي نحسها فعلاً، ما أن نتطلع إلى هناك؛ في الصيف، وبكل يقين، يكتسب المكان هنا جمالاً ساحراً؛ بيد أنه يخالجني شعور، أننا في ترحالنا الطويل الطويل، لن نمكث هنا ردحاً طويلاً أيضاً! أنني، الآن، منذ ٣٠ أيلول، أي منذ غادرت مخبأ قاذفات اللهيب، أكاد أكون في حالة ترحال بلا انقطاع؛ رأيت الكثير من المدن الصغيرة والقرى، رأيت الرون عدة مرات، وفي الأونة الأخيرة، حين شرعنا بالمسيرة الكبيرة الشاقة، مررنا أيضاً بالرون في حوالي منتصف الليل. كانت ليلة جميلة وباردة بشكل نادر، سرنا أثناء المساء والليل بمحاذاة السين . . . ثم وصلنا إلى الرونَ، آه، لقد كنا متعبين لحد الجنون، كنا ننوء تحت عبء حملنا الثقيل لدرجة غير معقولة، كانت الجياد التي تجر العربة الريفية الفرنسية التي صادرناها من أجل جهازنا، قد استنفدت بالفعل كل طاقتها. وهكذا مررنا بالقرب من كاتدرائية جميلة وبالحطام المحيط بها، وبدا بالفعل كأن الحرب، التي صمتت منذ سنتين هنا، قد بعثت من جديد؛ ثم أتينا بعد الرونَ إلى جبل شاهق ذي سلسلة طويلة بشكل جنوني؛ سلكنا، صاعدين طريقاً جبلياً شاقاً لمسافة أثنين أو ثلاثة كيلومترات. كان علينا أن ندفع العربات، وتستمر الخيول في جرها لمسافة ٣٠ أو ٤٠ متراً، ثم نضع الأسافين تحت العجلات ونقوم بأخذ استراحة قصيرة. آه، لم أتصور، أننا سنقطع هذا الجبل، وفي ذروته أخذنا استراحة طويلة وانتظرنا، حتى يأخذ كل دوره؛ مما زاد في الطين بلة، أن السماء أخذت ترسل غيثاً مدراراً؛ قمت برفع بطانيتي ووضعتها على أحد الجياد التي كانت تجر العربة والتي رافقتها طيلة المسيرة؛ كان شيئاً رائعاً، أن أستند إلى جسم الحيوان الدافئ الذي يحتمي بذات البطانية، وأدخن سيجارة. آه، كانت رائحة العرق نفاذة وحادة، لكنه كان يمنحني دفئاً رائعاً، وظهري محررٌ من الجراب، شعرت أني كالريشة خفيفاً وحراً. آه، لقد مكثنا هنا زهاء الساعة، تذكرت مسيرات عام ١٩٤٠، حين تقدمنا خلف خطوط الجبهة، دون أن نخوض حرباً، وكنا نرى أحياناً حطاماً يتصاعد منه الدخان والكثير من الجياد النافقة. (. . .)

لكن ينبغي أنني كنت في عام ١٩٤٠ شاباً يافعاً بشكل لا متناه، فعلاً، يخيل إليّ، أنني كنت حينذاك صبياً، غضاً تماماً وقوياً وغير مثقل بالهموم؛ بيد أن الحرب صنعت منا جميعاً رجالاً طاعنين في السن، بشكل عجيب، وفي نفس الوقت أعادتنا شباباً ولكن من نمط غريب . . .

آه، أستمر الأمر خلف الرونَ، خلف هذا الجبل العظيم، كان يقال لنا باستمرار: "سنصل، لم يبق أمامنا سوى ٤ كيلومترات، سوى ٣ كيلومترات"؛ ثم يعاد القول: "لم يبقى أمامنا سوى ٤ كيلومترات"؛ آه، آخيراً، أخيراً وصلنا عند الفجر، إلى «مأوى الفقراء». آه، قذفنا بالجُرب وأوينا إلى أقرب شونة، غص المكان بخمسة رجال، نمنا نوماً رائعاً، استيقظنا صباحاً ونحن على وشك الاختناق بالقش؛ آه، ثم اغتسلنا!

ثم كان عليّ أن أتجول طيلة النهار في القرية باحثاً عن خيول جديدة وعربة لجُربنا؛ آه، أن الأمر يستحق أن نضحي من أجله بوقتنا الثمين؛ وفي المساء واصلنا السير، من دون جُرب، على الأقل بالنسبة إلى الأغلبية.

لكن كان علينا بدلاً من ذلك أن ندفع العربات، في الغالب، لعدة كيلومترات؛ آه، هكذا واصلنا سيرنا على هذا المنوال طيلة ثلاثة أيام، بيد أننا، في اليوم الأخير، سافرنا بالسيارة، كانت حكاية رائعة، أن نقطع خلال ساعة واحدة بالسيارة ما كان علينا أن نقطعه على الأقدام في يوم كامل وبجهد جهيد. (. . .)

هنا بدأت أخيراً «حياة رخية» وذلك في يوم الجمعة قبل ثمانية أيام؛ في الواقع، أنا هنا منذ عشرة أيام؛ كم مضى هذا الوقت بسرعة جنونية!

ما جعل حياتي لا تطاق بشكل لا يصدق، هو المذياع الذي في حجرتنا هنا، يستمر من الصباح حتى المساء، إن ما يرويه طيلة النهار من هراء يفوق كل وصف، يكاد يصعب وصفه، حقاً، إني أتساءل إن لم يكن هذا نوعاً من الجحيم على الأرض. يستمر هذا الشيء، بكل معنى الكلمة، من الساعة التاسعة صباحاً حتى الحادية عشرة ليلاً وبلا انقطاع. هراء وهذيان مستمر، آه، هذا الهراء الذي يفوق كل وصف، من دون تقديم فكرة معقولة! حين تكون رسائلي سيئة بشكل بالغ وبليدة، فصدقيني، أن السبب كامن في هذا الصندوق البائس.

آه، إنه من النادر جداً، حقاً، أن تسمع ذات مرة موسيقى إنسانية، وحينذاك عليّ أن أكافح كفاح الأسود، كي يسمح لي بسماعها؛ قد يمكنني أن أكتب عن فلسفة المذياع، حقاً، وهي في ذات الوقت فلسفة الإنسان المعاصر - إنه شيء مفزع، فهذه نكبة حقيقية! بيد أنه لا يوجد هنا مكان دافئ آخر سواه! لكني لا أريد أن أتباكى، لأن ذلك سيكون طيشاً! في الغالب لا أسمع شيئاً وحين يسود الهدوء، بالفعل، لبضع دقائق أو يحل الصمت، زهاء نصف الساعة، يخيل إليّ حينذاك أنني في الجنة. هذه الأصوات النسائية - الرجالية المبتذلة، وهراء المذيعين المعسول، وهذه الافتراءات المرائية وعصابة الأوغاد! أصبح من الصعب بمكان، بالنظر إلى أشياء كهذه، الاعتقاد بألمانيا. (. . .)

جلست في النافذة طيلة العصرية؛ آه، يخرج الفرنسيون عن بكرة أبيهم للنزهة مصطحبين نسائهم الحسناوات المتأنقات، والأطفال ضاحكين . . . وأنا أقبع هنا مرتدياً جاكيتاً رمادياً، لا يسمح لي أن أشارك في الحياة؛ الطقس في الخارج كالحرير، وضوء الشمس باهرٌ ودافئٌ ومعتدلٌ في - كانون الأول! -، والخليج يمتد بشكل رائع؛ وعلى الجانب الآخر تلوح البلدات الصغيرة الملونة. (. . .)

أخذ مقتي للحرب ولحياة الجنود يتنامى باستمرار وبشكل فظيع! كان يثرثر عبر المذياع من مكان ما مذيع ممقوت بشكل نادر، أن كلباً تافهاً كهذا ينبغي أن يصفع ويركل جزاءاً لما قاله. ليحفظ الله قلبي في يده، كي لا أضعف في هذا الزمن الرديء بشكل يجل عن الوصف. وليحفظ الله ليّ قواي العقلية، كي أستطيع أن أقول كلمتي، التي هي ليس سوى صدى لصوت الله فينا، إن كان لنا أن نخرج من الحرب سالمين. ليأخذ الله بيدي؛ آه، أن جل ما أتمناه، هو أن أعمل في هذا الشتاء، أن أقوم بفعل إنساني حقاً، وأكدح فعلاً. ربما يسمح الله بذلك، وهذا ما آمله بحرارة! ليكن الله في عوننا، لتجاوز زمن الامتحان الصعب إلى الزمن الآخر، حيث نستطيع أن نحرك أجنحتنا في فضاء الحرية! آه، حتى إن كان الزمن الآتي ليست أكثر إيلاماً ومعاناة، فأننا سوف نلتقي، كذلك مع كل أولئك الآخرين، الذين هم في وعينا. (. . .)

ستزدهي زهور مسراتنا، وغيوم كآبتنا، التي تأتي من الرب، ستكون داكنة، لكنها ستكون حياة مختلفة عن تلك الطريقة الشاقة من الموت، التي علينا أن نحياها في هذه اللحظة. (. . .)

جعلت طباختنا تحضر ليّ قارورة من النبيذ الأحمر، لأنه يصعب عليّ مغادرة مكاني هنا؛ عليّ أن أمكث هنا باستمرار إلى جانب التلفون، وقد يحدث على الدوام شيء ما، لكن حالما يأتي رفيقي، سأقوم بتفقد مدفأة حمامنا القديم، واشغلها ثم أستحم بشكل رائع وربما أقوم بنزهة على رصيف الميناء؛ علينا باستمرار أن نأخذ بنادقنا معنا، إن نحن خرجنا، ولا يهم إلى أين نحن ذاهبون، وهذا يحد، بالطبع، من مسراتنا، لأن حمل آلة وزنها ست كيلو غرامات على كتفك باستمرار وحزام من الخراطيش ثقيل، لا يبعث على الفرح أصلاً، لكني لا أريد أن أدع أمرا كهذا يردعني. (. . .)

إن تعمل، تبدع، تستشعر بتوهج إنساني حقاً! شيء يبعث على الحياة فعلاً!

من هاينريش بول إلى أناماري — ٢٩ آب ١٩٤٣ / الساعة الخامسة صباحاً

أعود لتوي من جولتي الأولى، التي بدأتها نائماً والتي استيقظت خلالها، عندما قمت أنا بالذات بإطلاق هتاف عال: "كولونيا"، حين سألني الصوت القادم من موقع الحراسة في العاصفة عن كلمة السر؛ تثاقلت

في مشـيتي ومررت بين الكثبان الرملية ورأيت، كـيف ينبثق تحت قدمـيّ الرمل الأبيض الجاف من تحت الرمل البليل لامعاً متوهجاً لدرجة، أنه يضيء طريقي كأنه أثر ملتبس. ثم أغيب في المخبأ المعتم والباعث على الكآبة، الذي يجثم ككابوس على رئتي وقلبي ودمـاغي، بعد مـا شهـدت صفاء الـطبيعـة الطازج الجميل. ومن ثم يتكرر نفس الشيء :ما أن تلامس الزر الكهربائي، حـتى ترى صفاً من أسرة متـلاصقة، كل سريرين إلى جانب بعضهما البعض وفوقهما سـريران آخران، وبينهما ممر ضيق، .وفيه أمتعة محزومة، كذلك يبدو النائمـون في بزاتهم العسكرية، بلا علامة مميزة، كحُزم رمادية بائسة، وقد التـفوا ببطانياتهم الداكنة .وكان عليّ أن أعيد باسـتمرار ملامسة هذه الحُزم وإيقـاظها هزاً، بعضها يتدحـرج ويستدير، حتى يستيقظ أخيراً ـ غالباً ما يكون ذلك بعد معـركة كلامية ـ، ويدرك أن عليه أن ينهض. أتعتقدين، أنه يمكن كتابة مادة في علم النفس، تقتصر بالأساس على مراقـبة سلوك وتصرفات الإنسان عند استيقاظه من النوم واللحظات القليلة التالية. إنهم، في الحقيقة، جنود أطفـال، يتدثرون، بكل بساطة، بالبطانيات ولا يقرون بالواقع، إنما يغـرقون مـجدداً في الحلم، في هذا النوم اللذيذ الرائع للـغاية ويفرغـون من الواقع ببـساطة باعتباره حلماً. غالباً ما توقظهم للمرة الخامسة أو السادسة بـلا انقطاع، وهم يهمهمون دائماً باحتجاجات مبهمة، برقة وبنبرة حزينة، لكنه ليس من المسؤولية أن تدعهم يستغرقون في النوم، وهذا أمر يعرفه كل من يقوم بدور الحراسة في الخارج، متعباً ويائساً، يحسب الدقائق برغبة جامحة فعلاً. ثم ينهض هؤلاء الجنود الأطفال بعد كـفاح شديد ويرتدون ملابسهم في اسـتسلام ووجل، يكمن فيه ألم العـالم برمته. ثم هناك الجنود القدمـاء، العقلاء والحصـفاء، الذين يقولون: "نعم"، حـالما تلمسهم، ثم يتناولون سـجايرهم أو غلايينـهم، كي يأخذوا بضـعة أنفاس في دعـة وسلام تحت الغطاء الدافئ، ثـم ينهضون ويحـلون محل الآخرين في الدقيقة المحددة بالضبط. كذلك هؤلاء لا تخلو سـحنتهم من الحزن، بيد أن استسلامهم خالٍ من الحساسية، فهو لم يعد مرهوناً باللحظة إياها، إنما بهول الحرب عامة، إنهم يسمون، في الحقيقة، فوق ذلك. وهنالك الأغبياء، أغبـياء يائسون، يعدون، باستمرار، من يوقظهم مذنبـاً فعلياً عن كل ما يحصل، بينما يؤدي السـعداء عند منتصف الليل حـراسة طواعية، يغط هؤلاء في النوم، ويبـدؤون بمعركة كـلامية طويلة وبلا انتـهاء، لأنهم يظنـون أنهم قد أوقظوا بشكل مـبكر. وهناك أنماط قليلة جـداً من الجنود، من ينهضون حالاً وهم يدندنون «أغنية سـهلة» ولا يحسون أبداً بشيء من الألم الممض والحزن العظيم في هذه الحرب. هل لك أن تتصورين، أنني لا أحتاج لأكـثر من أن أتسلل إلى المخبأ في منتصف الليل وانظر إلى الحُزم الكثيرة الـداكنة فوق الأسرة الرمادية، لأعرف، ماذا تعني الحرب. كما أن هناك متـزمتين مدلهين، ينهضون بوجوه كالحة مقطبة، يمكن تصورها مـتوهجة وملتهبة في ضوء شعلة الثورة .وهناك الجياع، الذين تراهم على الفور يعبثون بسكاكينهم في القطع الثخينة من خبز الجيش، متعبون وحزانى؛ وهناك المتكالبون ـ هناك المجرمون، الذي ينهضـون، لكن، حالما تذهب، يستلقون مرة أخرى ويسـتغرقون في النوم، رغم أنهم يعرفون أن رفاقـهم المساكين يحرسون في الخارج وينتظرونهم، لكنهم يكذبـون في يوم آخر بوقاحة، في أنه لم يتم إيقاظهم ـ وهناك من هم يائسون تمامـاً، يلبسون جزمهم بحزن فظيع، فـعلاً، ويسيرون إلى موقع الحـراسة بوجـوه متجـهمة، لا تسـتطيع أن تتحـدث معهم، حين تريد أن تشـد من أزرهم، لأنهم يشخصـون وكأن على رؤوسهم الطير في حـالة من سخط يائس. أنا أعتقـد، أنني يمكن أن أرى وأسمع وأشهد الكثير، لو كانت عيناي مفتحة ولم أكن متعباً، متعباً، متعباً باستمرار ـ

وددت أن أروي لك الكثير، حـين بدأت بهذا الموضـوع، تصـورت الكثـير من النمـاذج المتنوعـة، التي شخـصتها بوضـوح، لكنهم تبخروا وغـرقوا في دوامة التـعب الرمادية ذاتها، التي تميت الدمـاغ وتسمم القلب. أتعتقدين، أنني أكـون أحياناً متعبـاً لدرجة، بحيث أشعر كأني مبـاركٌ حين أستطيع، في العراء، أثناء الإعصار أن أستلقي في الرمل البارد وأنام، أنام ـ آه، لو أنام.

في هذه الأثناء حل صبـاح يوم الأحد. توقف الحراس عن الحـراسة في الوقت المحدد لهـا بالضبط وأتوا بقنابلهم اليدوية وذخيرة التنبـيه إلى حجرتنا؛ سمح لهم أن يناموا لمدة ساعة ونصـف الساعة، قبل أن تبدأ الخدمة! إنه يوم الأحد! لا يسعني ألا أن آمل، في أن يسمح ليّ بالحديث مـعك بهدوء ودعة فعلاً. أني لا أستطيع أكثر من أن آمل ذلك.

(. . .)

من هاينريش بول إلى أناماري — الجبهة الشرقية في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٣

(. . .) هذا يوم يسوده الهدوء لحد ما وما زال رائعاً بما فيه الكفاية، لكن حين ينقضي النهار، سأعرف ما الذي أتى به، ولا يمكنني قبل ذلك التكهن بما هو غير متوقع. لقد تورطنا في قتال مرير، لكن الواقع يثبت، أن المشاة الروس لا يرجى منهم شيئ. فهم لم يقضوا مضاجعنا. هذا المساء ـ يحل الظلام في الساعة الثالثة ـ أخذنا نزحف إلى الأمام في موقع متقدم، كان يشكل خطراً كبيراً في النهار. يُشرع هنا بقتل جنوني صباحاً وظهراً ومساءاً. ليس هناك ما هو أكثر جنوناً وأكثر اجراماً من الحرب. لا أريد أن أتباكى، فأنا ما زلت سليماً وسأبقى كذلك بالتأكيد. نحن هنا في تخوم حقل عباد شمس مترامي الأطراف، لم يعد فيه شيئ سوى سيقان خريفية جرداء وقد حولته مدفعية الطرفين وجنازير الدبابات إلى أخاديد بكل معنى الكلمة، بحيث أصبحت الأرض خشنة، وصلبة وحالكة السواد. كنا نبذل جهداً، كي نحفر فيها حفراً لنا. فالأرض، الأرض هي عنصر المشاة. أنا آمل، في أن أستطيع أن أكتب لك أكثر من هذا، قريباً وكذلك للآخرين، إن خرجنا من هنا ليوم واحد. قد يستغرق الأمر هنا بعضاً من الوقت.
اليوم أشرقت الشمس بشكل رائع، بحيث استطعنا أن نجفف بطانياتنا القذرة المبتلة وملابسنا، كي لا تكون في الليل باردة جداً. (. . .)

من هاينريش بول إلى أناماري — سبسيتستنغيورغي في ١٠ حزيران ١٩٤٤

(. . .) لأن لدي، الآن، شيئاً من الـ «بنغو»، العملة الهنغارية، فاني أستطيع أن أتحرك بشكل غير مقيد لحد ما مع الشعور بالحرية والسعادة، وأنا أبحث عن الحياة. إنه شيء غريب ومبهم، أن تؤثر الفلوس العارية واللامعة على الإحساس بالحياة هكذا. للأسف أنا لست قادراً على أن أحمل نفسي على ما لا تود، وهذا يعني ضمنياً، أن أكون مستقلاً عن الآخرين. (. . .) الذكريات المفزعة عن تلك الأيام بالقرب من مدينة ياسي خفت وزال ما فيها من رعب مباشر، ولم تعد تثقل عليّ بشدة؛ آه، لم تمض سوى عشرة أيام، منذ إصابتي بجرح، مع ذلك، خيل إليّ أنها مدة طويلة جداً، منذ كنت هناك. إن هذه الوحشية البالغة للحرب قاسية لدرجة، بحيث أنني لا أستطيع أن أنسى أي ثانية من تلك الأيام وإنني لا أريد كذلك أن أنساها. لكنني أود، أن لا تتعرضوا لهذا العنف الساحق والمرعب والذي هو ثقيل ومظلم كالكابوس. أتعرفين، أن كل هذه الذكريات عزيزة عليّ جداً جداً، بما فيها ذكريات الحرب، لكني أريد أن أكون ذا سلطان عليها، وليس هي من لها سلطانٌ عليّ . . . آه، أنا أرغب أن أتحدث معك عن جحيم الأسلحة الحديثة وعن «عبث» يماثل رؤى يوحنا عن نهاية العالم، هذا العبث الذي كثيراً ما أدى إلى التضحية بحياة البشر. ليس هناك ما هو عبث، لأن كل شيء وأي شيء مقدر من الله، لكن من وجهة نظر بشرية وعسكرية هناك الكثير من العبث.
أنا أعرف، الآن ، أن الحرب إجرام، إجرام مطلق، بل هو الإجرام الأكثر فداحة! تكمن فيه كل أنواع الإجرام الأخرى، بأجمعها، بأجمعها . . .
ستقرر الجبهة الغربية مصير هذه الحرب، وأنا آمل أن تحسم عاجلاً. ما زال غرب أوروبا يعد أساساً بشكل مؤقت لدرجة، أنها ستؤدي إلى قرار الحسم. الله وحده يعلم، كيف سيكون المستقبل. أنا مشمئزٌ من الحرب ، فهي أصبحت شيئاً فشيئاً بلبلة جنونية، لم يعد هناك إيمان ولا مسرة ولا حماسة وفي معاناة مشاتنا قد بلغ السيل الزبى. الضباط أصبحوا عديمي النفع والجنود يتوقون باستمرار إلى تعرضهم لإصابات جديدة، تحررهم من الجحيم. لكني أكره أيضاً جحيم المستشفيات العسكرية، وأكره جحيم البدلة العسكرية، البدلة العسكرية بالذات . . .

ترجمة: علي أحمد محمود

المصدر: Heinrich Böll, “Briefe aus dem Krieg”, © Verlag Kiepenheuer u. Witsch Köln 2002

هانس ماغنوس إنتسنسبيرغر Hans Magnus Enzensberger

تأملات ذاتية

ميكانيزمات للدفاع عن النفس

البداية غير دموية، والمؤشرات غير ضارة. تبدأ الحرب الأهلية للجزيئات بصورة غير ملحوظة ودون تعبئة عامة. تدريجياً تزداد كميات القمامة على جانب الطريق. وفي الحديقة تتكوم الحقن وزجاجات البيرة. تنتشر رسوم الغرافيتي الرتيبة في كل مكان على الجدران. ولا تحمل سوى رسالة وحيدة عن الانطوائية والعزلة. إنها تستحضر «أنا» لم تعد موجودة بعد. يتحطم أثاث الفصول المدرسية وتفوح في الحدائق الصغيرة أمام البيوت رائحة البراز والبول. إنه إعلان حرب صامت وضئيل يستطيع ذوو الخبرة من سكان المدن أن يقدموا له تفسيراً. وفي الحال يتبدى الحنين إلى الغيتو ويعرب عن ذاته من خلال إشارات واضحة. تُمزق إطارات السيارات، تُقطع أسلاك هواتف الإغاثة، وتُحرق السيارات. تعد هذه التصرفات التلقائية تعبيراً عن الغضب على أي شيء غير معطوب، كراهية أي شيء يعمل، وهذه الكراهية تمتزج مع كراهية الذات لتشكل وحدة لا تنفصم. إن الشباب هم طليعة هذه الحرب الأهلية. ولا يرجع ذلك فقط إلى تكدس الطاقات الجسمانية والعاطفية المصاحبة بصورة طبيعية لفترة المراهقة، بل وأيضاً إلى هذا الموروث غير المفهوم والذي يجدونه في مشكلات الغنى الموحش التي لا حل لها. لكن كل ما يقومون بإعدامه موجود لدى آبائهم: إنه غضب التدمير الذي يتم التعبير عنه إن لزم الأمر في صيغ يتقبلها المجتمع، كالولع بالسيارات، والهوس بالعمل، أو النهم، أو إدمان الكحول، أو الطمع، أو الرغبة الدائمة في التقاضي أوالعنصرية أوالعنف العائلي.

ووسط هذا المزيج العنيف يصعب تحديد المصدر الذي يأتي منه الخطر. يتهاوى الإدراك كما في حالات خداع البصر من لحظة إلى أخرى. يحكي أحد الذين لا يقودون السيارات: "عندما أصعد الترام السريع في آخر المساء يحدث التالي: تكون العربة محملة بعدد قليل من الركاب وتكون إضاءتها سيئة. ينام رجل عجوز في ركنه. يتحدث بعض السكارى عند النهاية الأخرى للعربة. يجلس بجواري موظفان قاما بعمل ساعات إضافية. يتوقف القطار ويصعد أربعة شبان في العشرين. السترات الجلدية المعتادة والأحذية المعروفة. يتحدثون بصوت عال نسبياً وبلغة لا أعرفها، ربما العربية. يبدو على هيئتهم التحدي والاستفزاز. يتحركون داخل العربة وكأنهم يبحثون عن ضحايا. يقتربون مني وعلى الفور أشعر بالتهديد. يثبتون النظرة علي. أشعر وكأنهم على وشك مهاجمتي ثم يكملون سيرهم داخل العربة وتقع نظرتي على الركاب الآخرين. يبدو عليهم التبرم والحنق وقد تقلصت وجوههم معبرة عن قبح غريب. الكلمات التي أطلقوها أعرفها جيداً، حتى الرجل العجوز صحا من غفوته وهمهم بشيء ما من قبيل الشنق والقتل رمياً بالرصاص. الآن لم يعد خوفي من الغرباء، بل من أهل بلدي."

وقال آخر: "فشلت الرحلة المدرسية التي كان على ابنتي أن تشارك فيها" لأن بفصلها ثلاث فتيات تركيات رفض أولياء أمورهن مشاركتهن في الرحلة لأن المخاطرة كبيرة. وهذا مؤشر يوضح أن هناك أماكن عامة تشكل حدوداً فاصلة، أي أنه لا يمكن ارتيادها بدون وجود مخاطر. هذا ليس جديداً فقبل سنوات عديدة قام مئتا شخص بالسيطرة على حي برلين - كرويتسبيرغ وقد سمى هؤلاء الأشخاص أنفسهم: «فوضويون». وكلمة «فوضوي» تعني في هذا السياق أننا لا نعترف بوجود مجتمع إنساني. وكانت بغيتهم هي إسكات باقي سكان المنطقة وقد استطاعوا الوصول لهذه الغاية في الماضي. وصارت هناك مساحة لا سيادة للقانون عليها، تسود فيها الرقابة والخوف والابتزاز. انسحبت المؤسسات، وتدريجياً تقلص وتراجع كل ما تبقى من العالم المدني.

مثل هذه الأجواء موجودة أيضاً في شرق أوروبا وفي ألمانيا الديمقراطية سابقاً. ولا يخلو الأمر من سخرية عندما تتحول هذه المنطقة السابقة على هذا النحو من جديد إلى منطقة يحكمها الفوضويون. في بعض أجزاء من المدينة يسود قانون الغلبة للأقوى. والشرطة، التي تشعر بالقهر، لا تجرؤ على الدخول إلى هناك وتصبح بذلك من ضمن المتواطئين الصامتين. يمكن هنا الحديث عن مناطق محررة، حيث تمكن الجناة من تحرير أنفسهم من الحضارة وأثقالها.

في ظل هذه الظروف تحدث هجرة مزدوجة: هجرة عصابات الفتوات مرتدين الزي اليميني المتطرف، وهروب من هم في خطر. ينتمي أول ما ينتمي الأجانب إلى الآخرين ومن يفكرون بشكل مغاير، وفي النهاية كل هؤلاء الذين لا يريدون الخضوع للإرهاب. ويتبدى الأمل في انهيار تلك المنطقة والعامل الأساسي في عمليات الانهيار تلك يكمن في

انهيار عملية التصنيع كما هو الحال في الولايات المتحدة. تتفكك العلاقات الحياتية المعتادة، تنشأ مناطق محمية لديها حراسها الخاصون بها في ناحية وعشش من الصفيح وغيتوهات على الناحية الأخرى. في تلك الأحياء التي تخلت عنها السلطات لم يعد للمصالح ولا للشرطة ولا للمحاكم أي سلطة. تصبح هذه الأماكن غير قابلة للرقابة. تعد المناطق الحدودية بقواعدها المحددة وباضطراباتها حالة خاصة. غيرت نشاطات تهريب البضائع والجرائم معايير التعامل هناك بشكل جوهري. ويسهم في ذلك أيضاً هؤلاء المهاجرون غير الشرعيين والذين لديهم تكوين اجتماعي مختلف ولا يظهرون تفهماً لأشكال الاتصال المعتادة. لكن حتى سكان المنطقة يفقدون بسرعة معايير الحضارة. تحل محلها القوانين البدائية للعنف. مثلما يهجر شخص كصدام حسين القانون الدولي، يتم هنا إلغاء كل القوانين والالتزامات المكتوبة وغير المكتوبة. وحينئذ لا يُسمع إلا صوت المسدس.

وتبقى للمتضررين المعرضين للخطر استراتيجيتان باقيتان: الهرب أو الدفاع عن النفس. تتمكن الأقلية المتميزة من العثور على طرقها الخاصة للهروب، تهرب إلى أي من «جنان الإجازات» أو تحتمي بالمسكن الثاني أو المنزل المخصص للشيخوخة، أو تؤسس جمعيات أهلية أو مراكز طائفية في مناطق بعيدة. أما هرب ملايين المعوزين فيتخذ صورة اللجوء والهجرة البائسة.

من لا يهرب يحصن نفسه. وعلى المستوى الدولي توضع الحدود المانعة في كل مكان للحماية من البرابرة الهمج. لكن حتى داخل المدن الكبرى توجد أرخبيلات الأمان التي يجب الذود عنها. في المدن الأمريكية والأفريقية والآسيوية الكبرى هناك خنادق السعادة التي تحيطها أسوار عالية محصنة بالسلك الشائك. أحياناً هناك أحياء كاملة لا يمكن دخولها إلا ببطاقات شخصية مخصوصة وتراقب مدخلها كاميرات إلكترونية وكلاب مدربة بشراسة. ويؤمن المنطقة قناصة يحملون بنادق آلية ويقفون في أبراج المراقبة. أوجه المقارنة مع معسكرات التعذيب ملحوظة، الفارق هنا أن سكان هذه الأحياء يرون في العالم الخارجي المنطقة التي يتوجب القضاء عليها. يدفع المنعمون ثمن الرفاهية التي تؤدي لعزلهم الكامل. إنهم سجناء لأمنهم الخاص.

وتنتهي دورة التسلح إلى ديناميكية الحرب. في المنطقة التي لا تمارس فيها الدولة احتكار السلطة، لا بد لكل شخص أن يدافع عن نفسه. حتى هوبز الذي منح الدولة كمالاً يكاد يكون لا محدوداً في ممارسة سلطاتها، أشار إلى هذه النقطة قائلاً: "تدوم التزامات الرعية أمام صاحب السيادة فقط طالما أنه قادر على حمايتهم، لأن الحق الطبيعي للإنسان في أن يدافع عن نفسه حينما لا يكون هناك من باستطاعته أن يذود عنه، لا يمكن إزالته أبدا من خلال أي عقد اجتماعي."

وأسباب تراجع الدولة متنوعة. وفي مقدمة هذه الأسباب الجبن والحسابات التكتيكية، كما هو الحال في جمهورية فايمار وكما هو الحال في ألمانيا الموحدة. عندما تتطور الحرب الجزيئية لن تكون للشرطة ولن يكون للقضاء أية سلطة. وكلما قبضت الشرطة على متهمين كلما تحولت السجون الممتلئة إلى معسكرات تدريب للمقاتلين. في حالات أخرى كما في الاتحاد السوفييتي، فقدت سلطة الدولة أساس شرعيتها. وخطوة أخرى في هذا الاتجاه ويصبح الأمر كما في يوغسلافيا حيث يقوم النظام الحاكم نفسه بدعم تشكيل العصابات.

من يمتلك الوسائل الضرورية سيبحث في مرحلة مبكرة عن مرتزقة يحلون محل الشرطة. وأبرز دليل على ذلك نمو ما يسمى بقطاع الأمن الخاص. أصبح امتلاك حارس شخصي يعبر تعبيراً عن المكانة الاجتماعية. ينتدب الحراس الخصوصيون من وظائفهم الحكومية ويعهد إليهم حماية البنية التحتية. وفي الأماكن التي لا يكون للسكان فيها القدرة على تأجير حراس خصوصيين، يقومون بأنفسهم بتكوين مجموعات حراسة من بينهم. ومن كانت لديه القدرة المالية، سيمتلك آجلاً أو عاجلاً سلاحاً نارياً. الولايات المتحدة تعد قدوة في هذا المجال، حيث تعتبر الملكية الشخصية للسلاح جزءاً من الإيديولوجية الوطنية.

الحروب الأهلية، بدءاً من تلك الجزيئية إلى الحرب الأهلية على نطاق واسع، مُعدية. بينما يتناقص عدد غير المشاركين لأنهم يموتون أو يهربون أو ينضمون إلى أحد الفصائل المتحاربة، يصبح المشاركون تدريجياً شديدي الشبه ببعضهم البعض. يتشابه سلوكهم وكذلك دستورهم الأخلاقي. في مناطق الحروب بالمدن تتصرف الشرطة وفرق الجيش وكأنها عصابة بين العصابات الأخرى. تمارس فرق مكافحة الإرهاب عقوبات الموت الوقائي، وتتقدم دوريات الموت لمكافحة مدمني المخدرات والمجرمين الصغار الذين يعكسون صورة العدو المفترض. وفي مقابل حثالة البروليتاريا هناك حثالة البرجوازية التي تقلد عدوها في اختيار وسائلها. كذلك الأمر، عند حرق مساحات شاسعة من الأراضي في الحروب. تصبح التفرقة بين الهجوم والدفاع غير ممكنة. يشبه ذلك ميكانيزم الثأر، حيث يتزايد دائماً تورط أناس في خضم الخوف والكراهية حتى نصل إلى حالة الفقدان التام للتواصل الاجتماعي.

"لا نعرف ما الذي جرى لنا"، هذه هي أكثر الجمل التي يرددها الناجون من حروب سرايفو. وحين تعجز كل الإيضاحات، يعد فحص الذات ربما إحدى الإمكانيات الضئيلة لسبر غور الحقيقة. وقد قام كاتب أمريكي بخوض هذه التجربة. في تحقيقه الصحفي بعنوان: "بين المجرمين Among the Thugs" يصف بيل بفورد Bill Bufod كيف أنه أصبح ضمن جماعة المتمردين. يتناول تقريره المرحلة الكامنة للحرب الأهلية. كان ملعب كرة القدم هو

مسرح الأحداث: "رغم أنه لم يكن بإمكاني إدعاء أنني على علاقة بهم، لاحظت مع ذلك أنني قد بدأت أعجب بما يفعلونه . . . واليوم ،بعد تفكير أكثر حول الموضوع، يبدو لي أن هناك شبهاً كبيراً بين ذلك وبين التعود على الكحول أو التبغ. في البدء يمانع المرء، ثم ببعض الجهد يجد المرء متعته، ثم مع الوقت يصبح إدماناً. وفي النهاية يصبح فيها شيئاً من التدمير الذاتي."

في المشهد التالي يصل قبول العنف إلى ذروته: "كانوا ستة وبدأوا جميعاً يدهسون الصبي الذي كان راقداً على الأرض. غطى الصبي وجهه بيديه. وما أدهشني هو أنه كان باستطاعتي التمييز بين وقع الحذاء الذي أخطأ هدفه أو الذي أصاب الإصبع ولم يصب الجبهة أو الأنف. كنت كالمشلول. وعندما أفكر الآن في هذه الواقعة أتخيل أنني كنت على وشك وضع نهاية لها . . . لكنني لم أفعل. أعتقد أنني لم أفكر في ذلك قط. كان الأمر وكأن الوقت قد تباطأ بصورة درامية، وأصبحت بداية ونهاية كل ثانية ملحوظة مثل تتابع الصور على بكرة فيلم. وكنت منوماً مغناطيسياً بفعل كل صورة من الصور . . . من خلال هذا التصادم الأولي تخطيت العتبة الأولى وهي خط وهمي فاصل. على الجانب الآخر من هذه العتبة كان هناك معنى لحدود ما هو مسموح به، إتفاق طبيعي، حتى وسط هذه الثلة، على حدود ما يستطيعون فعله. لكننا عندئذ كنا في مكان ما، لم تعد فيه حدود كثيرة، حيث لم يعد هناك وجود للأشياء التي لا يمكننا القيام بها. . .

كان الهياج الذي يقف على عتبة شيء أكبر، على عتبة شعور يتسم بالتسامي. - على الأقل شعور بالسعادة، أو بالأحرى شيء من النشوة. طاقة تخترق النفس وتملؤها بشعور أنك قد حصلت شيئاً من المستحيل. بجانبي قال أحدهم إنه سعيد، سعيد جداً. ولا يذكر أنه قد كان سعيداً لهذه الدرجة من قبل."

ولد هانس ماغنوس انتسنسبيرغر عام ١٩٢٩، ويعد من أبرز الشعراء الألمان المعاصرين؛ واشتهر أيضاً بكتاباته المتنوعة.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Hans Magnus Enzensberger: "Aussichten auf den Bürgerkrieg". Kap. 6. Suhrkamp Taschenbuch 2524, © Suhrkamp Verlag 1993

Jörg Friedrich يورغ فريدريش

قصف مدينة فوبرتال

فصل من كتاب «الحريق»

أثار كتاب «الحريق» للمؤرخ والصحافي الألماني يورغ فريدريش ضجة عالية ونقاشات حادة في ألمانيا وانكلترا في نهاية العام الماضي؛ فهو يصور في كتابه نظرة الضحايا المدنيين الألمان لقصف المدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية. فريدريش يتساءل في كتابه فيما إذا كان قصف المدن الألمانية ضرورياً لإنهاء الحرب.

لا تبدو مدينة مثل فوبرتال* واضحة كهدف لقاذفة قنابل ذات محركات أربع من طراز «لانكستر» تطير على ارتفاع ستة آلاف متر. أظلم السكان المدينة وخرجت غلالة من البخار من قاع الوادي. عبر الطيار المنطقة الواسعة الممتدة خلال دقيقة، لا تهمه ضواحي المدينة. تحتاج المنطقة التي يستهدفها للتوقف عشر ثوان من أجل إطلاق قذيفته. لولا طائرة الإرشاد التي تطير على انخفاض كيلو مترين تحته، لم يكن ليعرف بالتحديد متى تأتي هذه البقعة، ربما في أي وقت بعد مرور ساعتين على الإقلاع من الساحل الإنكليزي الجنوبي. إضافة إلى ذلك لا يمكن إلقاء قنبلة عندما تعبر قاذفة القنابل متقاطعة مع هدفها، حيث أن القنبلة حينئذ لا تشكل مع الهدف زاوية قائمة بل قطعاً مكافئاً، ويؤثر فيها كل من الجاذبية وقصور الجسم بصورة مضادة وعندما تنفجر مصيبةً هدفها، تكون الطائرة قد تحركت ثلاثة كيلومترات بعيداً عن الهدف.

وصلت مجموعات طائرات الإرشاد السريعة المسماة «موسكيتو» والتي تتمكن طائرات القنص الألمانية من إصابتها، متأخرة دقيقتين. رصدتها مواقع المراقبة قبل ذلك بخمس وأربعين دقيقة عند مصب نهر الشيلده وتابعت حركتها فوق ماستريخت ثم مونشنغلادباخ وعندما عبرت الراين باتجاه الشرق مروراً بزولينغن بعد الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة ليلاً، تم التنبه لفوبرتال كهدف للقصف.

دوت صفارات الإنذار في منطقة الرور في الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة، دون أن يتسبب ذلك في حدوث أي انزعاج بمدينة فوبرتال في هذه الليلة من أيار/ مايو عام ١٩٤٣. حتى ذاك الوقت فشلت قاذفات القنابل البريطانية في العثور على وادي فوبر المغطى بأبخرة المصانع الكثيفة. من أعلى يمكن للمرء تصور هذه السحابة الضبابية من الأبخرة وكأنها بحيرة. وهكذا ظل عالقاً في مخيلة الناس أن هذه المدينة «ملجأ منطقة الرور من الغارات الجوية». إضافة إلى أنها مدينة مشهورة بالورع الديني.

ضلت المجموعة الرئيسية من قاذفات القنابل طريقها، إما بسبب الريح أو نيران المدفعية المضادة للطيران أو خطأ ملاحي أدى بها إلى التوجه إلى الجنوب الشرقي، وطارت خطأ فوق فوبرتال عبر ريمشايد.

لقد عثرت مجموعة طائرات الإرشاد رقم ١٠٩، من نقطة التجمع المسماة راينه، على فوبرتال في البدء من ناحية الشمال. لقد حددت الطائرات من على بعد ست دقائق موقع مدينة بارمن أحد طرفي مدينة فوبرتال باستخدام قنابل ذات إضاءة حمراء. من على ارتفاع ١٠٠٠ متر من الهدف هبطت القنابل متفرقة وأطلق كل منها ٦٠ شمعة إضاءة هبطت كلها كثيفة على الأرض توهجت كل شمعة من هذه الشموع لمدة عشر دقائق، بعد ذلك جاءت طائرات أخرى وحددت مدينة بارمن باللون الأخضر. بعد ذلك مباشرة جاءت خمس وخمسون من قاذفات الحمم النارية وألقت بموادها الحارقة ليدخل لونها في المزيج اللوني الكثيف وبذلك زالت العتمة. تم تحديد الإشارات بدقة على جانبي المدينة. وردت التعليمات لترسانة قاذفات القنابل الأساسية بأن تصوب على المنطقة المحددة بالأحمر، طالما أمكن رؤيتها، وفيما عدا ذلك تصوب على الأخضر. دوى هدير قاذفات



القنابل مقتربة من على بعد يربو على ٢٤٠ كم بعرض عشرة كيلومترات وعمق ثلاثة كيلومترات. أفرغت ٦٠٠ طائرة حمولتها بمعدل ١٠ طائرات كل دقيقة تقريباً.

في موجة الهجوم الأولى لم تلق الطائرات الأربع والأربعون التي نفذتها سوى ذخيرة حارقة. سقطت القنابل الحارقة بكثافة غير معهودة هادرة كشلال، في هذه الليلة ألقي ما يربو على ٣٠٠٠٠٠ قنبلة حارقة. من أعلى بدا المشهد وكأن القنابل تأخذ معها منحدرات الجبال إلى أسفل. في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة ليلاً حاصرت النيران مدينة بارمن حصاراً محكماً بدءاً من المسرح وحتى جسر أدلر. وساعدت المنازل الجبلية ذات الدعامات الخشبية والحواري الضيقة الملتوية والوادي الذي يشبه الفرن، بالإضافة لهبوب ريح خبيثة، في تأجج الحريق وانتشاره. وسط الدخان الذي ملأ كل مكان، وسط الفرقعات التي هدمت البيوت، وسط الضجيج الناتج عن تهاوي أسطح البيوت والواجهات والسرعة الرهيبة لألسنة اللهب، لم يعد ممكناً تحديد ما الذي يمكن إنقاذه. هرب سكان البيوت إلى برودة القبو، فيما ظلت ألسنة اللهب حية لثلاث أو أربع ساعات متواصلة. استعرت النيران متنقلة من بيت إلى بيت. اشتعلت أسقف بعض البيوت واشتعل البعض الآخر حتى الدور الأرضي. تلاحمت الحرائق مع بعضها البعض في الساعة الثانية ونصف صباحاً. بعد وقت قصير تحولت ألسنة الحريق المتفرقة إلى حريق يغطي المنطقة بأكملها، بحيث لم يعد هناك مفر منه. أثناء ذلك نشأت عاصفة تمزق أي شيء يتحرك داخل هذا الفرن.

كانت طائرات الإرشاد تتحرك باتجاه فوبرتال تبعا لذبذبات رادار سموها «أوبوا» مثل الآلة الموسيقية. استخدمت فرق القاذفات البريطانية هذه الذبذبات منذ بدء العام. كانت الإرشادات تبث من إنكلترا وتكاد تغطي منطقة الرور، التي دارت فيها معركة الرور منذ شهر آذار/ مارس. حتى نهاية هذه المعركة في شهر تموز/ يوليو، قادت ذبذبات «أوبوا» ٣٤٠٠٠ طن من القنابل و ١٨٥٠٠ طائرة إلى أهدافها.

كان الطيار المسؤول عن تحديد المكان يسمع سلسلة من الإرشادات الصوتية تصله عبر سماعة الرأس وكانت الإشارات الصوتية تنظم عملية الإقلاع وإطلاق القذائف. وإذا ما اتخذت الطائرة مسارها في الجو، ترسل المحطات الأرضية إشارات صوتية دائمة تشبه أصوات الأوبوا، وإذا حدث انحراف عن المسار تتحول هذه الأصوات إلى نوع من شفرات مورس. وإذا ما اقتربت الفرقة من الهدف، تُسمع إشارة ثانية وسلسلة من الإشارات الصوتية السريعة الطويلة والقصيرة وبعد ذلك سلسلة من الإشارات القصيرة. وعندما تتوقف هذه الإشارات، يضغط القنّاص في الطائرة على زر إطلاق القذيفة. في هذه الليلة، مطلع الصيف خرج الكثير من الناس في فوبرتال من بيوتهم. بقى فريق عمل محدود من رجال المطافىء في الخدمة، معظم زملائهم الآخرين أخذوا عطلة نهاية الأسبوع وجلسوا وسط الطبيعة الخضراء. في مطعم قصر الغابة الصغير بمنطقة هاردت كان هناك حفل زفاف. استمتع العروسان بالأغاني والكلمات التي ألقاها الأهل بمناسبة الحفل، وتأجل انتقال الحفل إلى ساحة فوبرتال حوالي ساعة، وكان ذلك لحسن حظ هذا الزفاف. لم يسمع أحد صفارات الغارات الجوية. وحدثت بلبلة، طلب مدير المطعم من كل المدعوين الذهاب إلى المخابىء. في بارمن استيقظت "لويزه رومبف" على صوت الإنذار، ارتدت الملابس التي وجدتها أمامها وحملت ابنتها "أولي" على ذراعها. هرع سكان المنزل وهم يبكون ويصرخون إلى القبو، أبعدت المزاليج الخشبية. في نهاية الممر هناك فتحة في الحائط مغلقة بصورة غير محكمة وتفضي إلى قبو الجيران. "قبل أن نصل إلى القبو، شممنا رائحة النيران ورأينا من فتحة النوافذ على الدرج، الدرجات اللونية المختلفة للنار المستعرة." قبل أن تضرب القنابل مدوية فوق أسطح المنازل، يُسمع صوت أزيز. يتمتم زوجان عجوزان التصقا ببعضهما متضرعين إلى العذراء، وتزعق امرأة عجوز مخمورة لا أطفال لها قائلة: "اللعنة". ألقى زوج لويزه نظرة إلى الخارج، ومع دخوله اقتحم الدخان المكان. "يجب أن نخرج من هنا."

في أحد الأقبية الأخرى اختبأت الإنكليزية "سيبيل بانيستر"، وقالت مطمئنة إلى القبو الألماني "إنه آمن مثل سرداب كنيسة." أحضرت صديقتها بسرعة جاكيتاً من الدور الأرضي، بينما التهمت النيران الدرج من أعلاه لأسفله. "لم نتخيل أن بإمكان النار أن تنتشر بهذه السرعة في المنزل ذي الطوابق الأربع، حتى لو اقتحمت مائة قنبلة المنزل عبر السطح." يقول المسؤول عن مخابىء الغارات الجوية، لو انهار الدرج، لسقط الحطام المشتعل على درجات سلم القبو ولمات كل السكان مختنقين بفعل الحرارة والدخان. ساق النساء إلى الفتحة الصغيرة في الجدار والتي تفضي إلى قبو الجيران. "كان الظلام دامساً والفتحة صغيرة جداً، تلبسني الفزع من مجرد التفكير في أنني يمكن أن أبقى محبوساً داخل هذا الممر الضيق المروع."

تجرأت فتاتان واتخذتا الطريق عبر الحديقة باتجاه السور، لكنه لم يعد هناك سور. وحيث أن النيران قد أتت من كل النواحي، ركضتا إلى مبنى المسبح على الجهة المقابلة، خرجت منه النيران، لكنه كان الطريق الوحيد المتاح. هناك انتظر ٢٠ شخصاً حاصرتهم النيران

مدينة كولونيا
Walter Dick: Destroyed Cologne. April 1946. Reproduction from: Walter Dick, Dieter Wellershoff: Köln. Stadt im Aufbruch.
© Verlag Kiepenheuer & Witsch 2002



ولم يعودوا قادرين على الخروج من المكان، وليتجنبوا الحرارة، كانوا يعاودون القفز في المسبح ويلفون رؤوسهم وأجسادهم بالملابس المبللة. وحولهم اشتعلت النيران في القاعة وصار بلاطها ساخناً مثل فرن.

محاصرين بالنيران، بحث الكثيرون عن ملجأ عند نهر الفوبر، لكنهم لم يقفزوا فيه، بل انزلقوا أسفل سور النهر. نادى رجال الإطفاء على الطبيبة إليزابيت شتارك التي كانت تعمل في خدمة الإسعاف وقاموا بإنزالها من المبنى بواسطة سلم المطافيء لكي تعالج من أصيبوا بحروق. "نصف أجسامهم كانت عبارة عن جرح كبير ملتصق بمزق ملابسهم." اعتنت الطبيبة شتارك بالجروح وحقنتهم بالمورفين لتسكين الألم.

زحفت لويزه رومبف مع عائلتها إلى قبو الجيران حتى وصلوا إلى غرفة الغسيل. "في غرفة الغسيل ساد خليط من أصوات الولولة والدعاء والسباب. وضعت أم فوطة مبلولة أمام وجه رضيعتها التي لم يتعد عمرها بضعة أشهر، وذلك كي تتنفس جيداً. وقمت بعمل الشيء نفسه مع أولي أيضاً، حيث ازدادت صعوبة التنفس مع كثافة الدخان."

في مخبأ الغارات الجوية العمومي تحت المصنع المشتعل في شارع أدولف هتلر، ساور القلق آدامسن بسبب التنفس رغم أن تجويف المخبأ لم يتأثر بالقصف. "لم أعد أشعر بالأمان أقنعت أمي وخالتي بالهرب. لحسن الحظ كان الشارع واسعاً جداً." كان الرماد والشرر الساخن يلاحقانهما. استعرت النيران في فتحات النوافذ ثم التحمت ألسنة اللهب ببعضها البعض "كما في كاتدرائية عالية". أمسكت روث البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً خالتها لينه من ذراعها وأمها تسير بجانبها وقد أغلقت عينيها. "عند شارع اريش سمعنا صرخات مفزعة وسط النار، "إلحقوني، إني أحترق" بعد ذلك عرفت أنه السيد دورينغ الذي كنت أشتري منه كراسات المدرسة دائماً في الماضي."

كان الدخان الذي تسلل إلى غرفة الغسيل إشارة إلى آل رومبف بمغادرة المكان. فُتحت كوة في القبو الثالث، سيضيق المكان بسكان ثلاث بنايات. "صمت الجميع أنصتوا لما يحدث بالخارج. الآن ساد الصمت في السماء. لم نعد نسمع سوى فوران وأزيز أعمدة اللهب والدخان المحيطة بنا والتي وصلت إلى السماء، حيث تكونت هناك سحب صفراء وحمراء ورمادية." أطفال تائهون يقفون بحقائب صغيرة، ويمر بعض الناس مهرولين "بنظرة منقبضة أو خالية من التعبير، وبعضهم بوجوه عابسة."

هرعت أيضاً عائلات حفل الزفاف الإحدى عشرة خارجة من المخبأ. وقف "سبعة" أمام اللاشيء. رافقت ابنة خالتي التي كانت تبكي بصوت خفيض إلى منطقة روت Rott حيث تركت أطفالها الثلاثة في رعاية جارتها. جرت مندفعة للأمام دون توقف ولم تدع رجال المطافيء الذين أشاروا إلى خطر انهيار المبنى، يوقفونها. وعندما نظرت إلى المنزل الذي سكنت فيه خارت قواها، إذ رأت البيت يشتعل. لكننا وجدنا الأطفال سالمين في قبو المنزل المجاور."

وتبينت السيدة بانيستر، التي خرجت أيضاً إلى الخلاء بعد نهاية القصف، أن الطائرات قد انصرفت لكن الهجوم بدأ لتوه. "وعلى مد أبصارنا تحول كل بيت إلى شعلة، حاولت أن أسير وسط الشارع، لأن ألسنة اللهب خرجت من كل النوافذ، والأشجار على طرفي الرصيف اشتعلت أيضاً وصارت تلقي بأغصان متوهجة. وأعاق إسفلت الشوارع الساخن المنصهر خطانا." وكثيراً ما تعثر الهاربون من القبو أثناء جريهم في الإسفلت المنصهر، لم يستطيعوا حراكاً واحترقوا بالأشياء الملتهبة التي تسقط من أعلى.

الآن تنهار منازل قديمة مبنية من الخشب. يتكاثف الدخان ويضيق الطريق. "الآن لم يعد بإمكاني الرجوع وحاصرتني النيران. اخترت الموضع الذي لم تكن فيه ألسنة اللهب عالية جداً، أي لحد الركبة تقريباً." لا تذكر السيدة بانيستر شيئاً عن حروق ساقيها ولا عن الدخان الذي ألهب العينين ودخل الفم والحلق وبدأ يخنقها. "مع الوقت خارت قواي وهدني تعب فظيع." يفتقد المخ إلى الأوكسجين. إنها تعرف حتماً أن هذه قد تكون نهايتها ونهاية حياة طفلها ماني الذي تحمله فوق ذراعها.

"وعندما انهارت ركبتاي لم أعد قادرة على حمل ماني وتدحرج من بين ذراعي. كان لا يزال ملفوفاً في غطائه، ساقاه فقط خرجتا من الغطاء. وبمجرد أن لامستهما النيران صرخ من الألم وتدحرج أمامي على الأرض." وصل صراخهما إلى من لا أذن له. التقطتهما دورية إسعاف مارة وأوصلتهما إلى رئاسة الشرطة حيث تتم معالجة الجرحى الذين غطت جلودهم طبقة من الهباب الأسود. "على مايبدو أن عمليات الإسعاف كانت منظمة بصورة جيدة جداً." أصيبت سمانتا السيدة بانيستر ببعض الحروق. "ضمدوا لها موضع الحروق بضمادة مبللة بسائل يمنع المواد الكيماوية الحارقة من الاستمرار في كي لحمها."

في الطريق تبدت لها الحدود الفاصلة المستقيمة للتدمير الذي لحق بالمدينة. "ففي ناحية كان الجحيم وعلى الجانب الآخر مدينة عادية، صحيح أن هواءها كان مدخناً وكانت بها حركة غير عادية في أثناء الليل، لكن مبانيها ظلت على الأقل واقفة على قوائمها. عمل دقيق فعلاً." وعندما عادت قاذفات القنابل مرة أخرى بعد أربعة أسابيع، كانت تحدد أهدافها من

الحرب
Arnold Böcklin:
"Der Krieg", 1896.
Staatliche Kunstsammlung
Dresden. © Artothek



طرف المدينة المدمر فوبرتال ـ بارمن وتقصف فوبرتال ـ إلبرفيلد.

غمرت المدينة رائحة غاز عفنة وشياط وطين. حجب الدخان الشمس، علقت فوق الوادي سماء برتقالية اللون. على بعد ثلاثمائة متر من خدمة الإسعاف التي تعمل بها الطبيبة شتارك كان هناك عيادة فيشرتال. هنا احترقت ثلاثون أماً مع أطفالهن حديثي الولادة. خرج الدخان من بيوت فيشرتال رمادياً داكناً عندما عبرت لويزه رومبف فوق المرج. "كانت عيادة النساء هي أكثر مبنى مميز وسط هذه البيوت حيث ثُبت فوقه صليب أحمر كبير." بعض المريضات استطعن الهرب من العيادة.

"رأيتهن راقدات في أنحاء المرج، نسوة مريضات أو حوامل أو على وشك الوضع."

جرت الممرضات هنا وهناك وفردن أغطيتهن وتخلل صراخ ونحيب الحوامل أثناء الولادة الصوت اللطيف للأطفال حديثي الولادة.

شاهد الصبي فيلفريد بيكار من سكان جنوب مدينة البرفيلد والبالغ من العمر ٩ سنوات الهجوم من شباك السطح "وفي اليوم التالي في بارمن رأيت الموت لأول مرة في حياتي." حسب ما يروون، انكمشت الجثث المحترقة لتصبح في حجم الدمى وقد تعجب بيكار من رؤيته "لجسم امرأة بالحجم الطبيعي، كانت قريبة من الرصيف ووجهها منكفىء على البلاط، عارية وبشرتها سوداء تماماً.

أما المتدرب هاينريش بيرغان البالغ من العمر ١٦ عاماً والذي عنده رخصة سائق نقل من خلال تدريبه لدى شركة قطارات الرايخ، فقد أوكلت إليه مهمة انتشال الجثث: "قالوا: ستة موتى هنا وعشرون هناك إلخ... أحياناً كانت الجثث مسجاة في هدوء وسلام كما لو كانت نائمة. كان طول الأجساد المتفحمة حوالي ٥٠ سنتيمتراً. كنا ننتشل الجثث ونضعها في أحواض من الزنك أو في مرجل غسيل، مراجل الغسيل تسع ثلاثة أجسام وأحواض الزنك سبعة أو ثمانية أجساد." ما كان بيرغان يتأذى لرؤيته هو منظر الحروق الجزئية، كأن يكون الذراع مثلاً تحت الأنقاض ولا يكون متفحماً. "فالجثث المتفحمة العادية، لم يعد لها أي صلة بالبشر، كانت مثل طرود سوداء صغيرة، لكن حينما يعلق بهذه الجثث المتفحمة عضو سليم من أعضاء الجسم، يدرك المرء على الفور ما الذي يراه أمام عينيه. ولكي نتحمل هذا المشهد الصعب، كان علينا أن نشرب دائماً جرعة من مشروب كحولي قوي."

لحقت أكثر الخسائر بمباني حي فيشرتال الملتصقة ببعضها بعضاً. وفي شارع تسويغهاوس انمحت من فوق الأرض بناية بها ٣٢ شخصاً. ولأن العائلات كلها سُحقت، صعب تحديد هوية الجثث. وقد كُتب في قائمة القتلى بإدارة الدفن ما يلي: "أنثى، فستان كاروه أبيض في أزرق، خاتم زواج، طقم الأسنان مفقود، حذاء أسود برباط." أو "أنثى، متفحمة (نصف الجسم) لباس داخلي، سن ذهبية." أو "ولد، حوالي ١٣ عام، بنطلون أسود مانشستر، جاكيت بني، فتاة متفحمة، ملابس بنقوش شوك السمك، جمجمتان لبالغين وجمجمتا أطفال."

اعتبرت عملية فوبرتال في إنكلترا أكثر الهجمات نجاحاً في وقتها. وكتبت جريدة التايمز آنذاك تقول: "لم يتم من قبل محو مدينة صناعية ألمانية تماماً من على الخريطة" أكثر من ١٠٪ من الطائرات أخطأت المدينة ودمرت المناطق الواقعة جنوب ريمشايد وزولينغن. لكن باقي الطائرات الخمسمائة وصل مدى تدميرها إلى خمسة كيلومترات حول هدفها. استغرقت عملية انتشال الضحايا أسبوعين. تم تدمير ٨٠٪ من المساكن. قُتل ٣٤٠٠ شخص. وبذلك فاق عدد قتلى فوبرتال من جراء القصف الجوي خمسة أضعاف قتلى مدينة دورتموند التي تعرضت لقصف مشابه، حيث قُتل في دورتموند ٦٩٣. وفي نفس العام راح ضحية للقصف في أربع مدن أخرى أكثر من ٢٠٠٠ قتيل بين المدنيين. فقدت ميونيخ في ليلة العاشر من آذار/ مارس ٢٠٨ أشخاص ودويسبورغ في الثالث عشر من أيار/ مايو ٢٧٢ شخصاً واسن في ٢ آذار/ مارس ٤٦١ شخصاً وشتوتغارت في السادس عشر من نيسان/ أبريل ٦١٩ شخصاً.

شاع الحديث بين الناس عن المصيبة التي نزلت بمدينة فوبرتال. تراوح عدد الضحايا في أحاديثهم ما بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً، ولم توجد صحافة ذات مصداقية آنذاك. لكن الناس قد أحسوا من خلال قصف فوبرتال أن الحرب الجوية قد اتخذت شكلاً آخر وأرجعوا ذلك إلى طريقة استخدام النيران.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Jörg Friedrich: "Der Brand, Deutschland im Bombenkrieg 1940-1945". S. 13-S.20.

Ullstein Heyne List GmbH&Co. KG München.

* نشأت مدينة فوبرتال عام ١٩٢٩ حيث جمعت تحت مظلتها عدداً من المدن أكبرها بارمن وإلبرفيلد وكانت تسمى قبل ذلك إلبرفيلد ـ بارمن. (المترجم)

Herfried Münkler هيرفريد مونكلر

نهاية الحروب التقليدية

أمراء الحرب وشبكات الإرهاب ومستقبل العنف الحربي

إن «الحروب الجديدة» التي يلعب فيها أمراء الحرب وعصابات الإرهاب دوراً فاعلاً ليست بجديدة. كان العنف الحربي «المخصخص» موجوداً على نطاق واسع قبل عصر نشأة الدول الحديثة ـ لكن كيف سيتطور الموقف الحالي الذي بدأت فيه الحروب بين الدول تصير أمراً استثنائياً؟

بعد عام ١٩٤٥ كانت الحروب بين الدول تمثل، من حيث المنشأ، ثلث الحروب الدائرة في العالم، أما الثلثان الآخران، فكانا يمثلان حروباً داخلية أو خارجية، قاتلت فيها ميليشيات محلية وجماعات من المرتزقة من كل أنحاء العالم وشبكات إرهاب تعمل على نطاق دولي وكذلك أمراء الحرب الإقليميون لم يعد هناك مجال للحديث عن احتكار الدول القانوني والفعلي للحرب، كما كان عليه الحال في أوروبا منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين. لقد تخلصت الحرب من القيود التي ربطتها بكيان الدولة، تلك القيود التي وضعتها اتفاقيات سلام وستفاليا ١٨٤٦ لإنهاء حروب الثلاثين عاماً، لقد تخلصت الحرب من سيطرة الدول والفاعلين الذين يعملون لحسابهم الخاص، ومن أمراء الحرب والمرتزقة وشبكات الجماعات الإرهابية، لكنها تحارب دولاً أيضاً.

لاتتميز الحروب الجديدة بالتكافؤ، أي أنها حروب لا تميل بشكل عام إلى تكافؤ نسب القتلى والمقتولين فيها. وهذا بالضبط كان جوهر المبارزة أو تركيبات المباريات القتالية التي تأسس من خلالها التصور الأوروبي عن الجندي وأخلاقه ذات الطابع الخاص. لقد استبدل شكل المبارزة الكلاسيكي أو تركيبة المباراة القتالية بمجموعة كبيرة من أشكال استخدام القوة من جانب واحد. ويتبين جلياً مثلاً في الاغتصاب الجماعي المنظم بوصفه جزءاً من الحرب، أو في تحول الطائرات المدنية إلى صواريخ وتحول المباني العالية إلى مجازر. في المكان الذي كان يحمي فيه وطيس القتال في المعارك الكلاسيكية، حلت المذابح، أي تحولت إلى مكان يقوم فيه طرف بالقتل والطرف الآخر يقتل، دون أن تكون له أية فرصة للدفاع عن نفسه بصورة فعالة. بنهاية الحروب بين الدول اختفت الفروسية التي كانت تعد خلقاً معتاداً في الحروب المتكافئة، والتي صاحبت تاريخ الحروب على الأقل بوصفها فكرة تنظيمية وصارت أحياناً طابعاً مميزاً لها، من لائحة المبادىء المنظمة للعنف الحربي.

المرتزقة، القدامى والجدد

كيف وبأي وسيلة صارت الحرب من جديد عملاً مربحاً؟ لم يكن شن الحرب دائماً عملية مجزية، لكن عملية إعداد قوى عاملة للحرب على مستوى القطاع الخاص قد جلب في ظروف معينة من التاريخ الأوروبي أرباحاً. وإلا لما كان ممكناً تفسير ظهور المرتزقة الإيطاليين Condottieri أو السويسريين أو الألمان. وهذا يعني أن الحرب تعيش من الحرب.

كانت الظروف في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مواتية جداً لذلك، حيث تجمع لدى مدن التجارة كميات كبيرة من رأس المال، وأصبحت بذلك هدفاً جيداً للعنف المسلح المربح وفي نفس الوقت لم يكن لدى الطبقات العليا في المدن رغبة في أداء الخدمة العسكرية. ونظراً إلى وجود عمالة كافية للجيش في الريف وكذلك بين النازحين من الريف إلى المدينة، لم يكن هناك حل أقرب من وضع الأسس لعلاقات تشغيل محددة المدة، وهي ما يسمى Condotta. جعلت الطبقات العليا المدنية الطبقات الدنيا الريفية تحارب لحسابها. وقد أدرك هؤلاء المحاربون القوة التي في أيديهم وأدركوا أيضاً مايمكنهم أن يحققوه من دخل مادي من خلال ذلك. وهكذا أصبحت الحرب عملاً مدراً للربح، هناك بعض من المحاربين بدأ فقيراً معدماً واستطاع أن يحقق من خلال ذلك ثروة كبيرة وبعض من هؤلاء الريفيين استطاع أن يتحول من مرتزقة إلى أمير أو دوق.

لقد كان الغلاء المتزايد في تكلفة الجهاز العسكري أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وراء اختفاء وكلاء الحرب الخصوصيين وأمرائها في بدايات التاريخ الحديث. كان ألبرت فون فالنشتاين هو آخر أكبر وكلاء الحرب لكنه فشل سياسياً بعد أن حقق في البداية نجاحات لايستهان بها. هناك ثلاثة أسباب للغلاء المستمر في تكلفة الحرب وهي تطوير المدفعية والتي كان لاستخدامها دور حاسم في الحروب. والزيادة المستمرة في حجم الجيوش والحاجة إلى الجمع والتوفيق بين قوات المشاة والمدفعية والفرسان في الحرب، وأخيراً إعادة تنظيم وحدات المشاة بطريقة منظمة

وتكتيكية على أسس عسكرية أكاديمية، حيث أنها بدأت تذهب إلى المعارك في صفوف طويلة وازداد استخدامها للسلاح الناري.

كل ذلك كلف نقوداً ومع الوقت لم يكن هناك من باستطاعته تحصيل هذه الأموال سوى الدولة. كان إعداد ترسانة كبيرة من المدافع أمراً يكاد يكون مستحيلاً على وكلاء الحرب. لقد أدى كبر حجم الجيوش وضرورة التدريب على عمل أسلحة الجيش الثلاثة معاً، إضافة إلى الوقت الطويل الذي تحتاجه تدريبات المشاة، إلى الزيادة المستمرة لتكلفة الحرب وبذا صارت الحرب عملاً غير جذاب لوكلاء الحرب الخصوصيين. تم استبدال المرتزقة الذين كان يتحتم استئجارهم قبل الحرب مباشرة بالجيوش المستديمة. وهكذا تم فصل الحرب وإعدادها عن منطق الاستهلاك الرأسمالي.

على النقيض من ذلك يشير التطور التقني للأسلحة في العقود الماضية إلى اتجاه معكوس. في كثير من الحروب الجديدة، لا تلعب الجيوش ذات العتاد الكبير دوراً حاسماً، بل تقوم بذلك ميليشيات، قام أمراء القبائل أو زعماء العشائر بتجنيدها على عجل، إضافة إلى جماعة تابعة من أمراء الحرب المسلحين. وأسلحة الحروب الجديدة رخيصة، حيث تعتمد هذه الحروب على الأسلحة الخفيفة، كالبنادق الآلية والألغام والبنادق الآلية المثبتة على عربات نصف نقل. نادراً ما تُستخدم الأسلحة الثقيلة، وإذا ما تم استخدامها، فسيتعلق الأمر باستخدام أسلحة قديمة من مخلفات الحرب الباردة. وفي حين أن تكلفة الإعداد للحرب وحدها في ظل الشروط الخاصة بصراع متكافىء، ناهيك عن شن الحرب، تزداد باستمرار، تمكن استراتيجيو الحروب الجديدة من جعل تكلفة الحروب رخيصة إلى الحد الذي جعلها من جديد عملاً يعد بربح كبير.

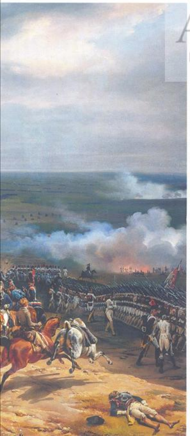
لكن هذا لا يعني طبعاً أن جملة التكلفة الاجتماعية للحرب أصبحت منخفضة. على العكس من ذلك: إن الآثار طويلة المدى للحروب الأهلية وتدمير البنية التحتية للبلاد وتخريبها وتلغيم الشوارع والحقول ونمو جيل من الأطفال لا يعرفون شيئاً سوى الحرب والعنف تعني تكلفة ضخمة. لكن هذه التكاليف لا يدفعها الفاعلون الرئيسيون في هذه الحرب. يجدر بنا هنا أن نذكر مقولة قديمة تفيد بأن أمراء الحرب وزعماء الميلشيات قد تمكنوا بلا حياء من خصخصة مكاسبهم من الحرب التي أداروها، وتعميم تكلفتها على المجتمع. وترتبط إمكانية تحقيق ذلك بالفشل في تأسيس الدولة في أجزاء كثيرة من العالم الثالث.

في تلك البلدان التي يطلق عليها دول فاشلة failed states لا توجد أية مؤسسات لها صلاحية منع تعميم تكلفة الحروب على المجتمع أو أن تضع لذلك حدوداً. يصبح المدنيون والمناطق التي يعيشون فيها، بخاصة لو كان بها ثروات طبيعية، غنيمة لمن يفرض رقابته على المنطقة بمساعدة أتباعه المسلحين. وهكذا يتعمق العنف الممارس من قبل وكلاء الحرب الخصوصيين في المجتمع، بحيث لا يوجد سبيل للخلاص إلا بالاستعانة بقوى خارجية. ويبقى السؤال مفتوحاً، بشأن تمكن هذه القوات من إقرار السلام في البلاد أو تحولها إلى أحد أطراف الحرب التي ستتطور على أثر هذا التدخل وقد يتبع هذا التدخل تدخلاً مضاداً . . . أنغولا والكونغو والصومال وأفغانستان والقوقاز، كل هذه المناطق تعد علامات تعجب خلف هذا السؤال المفتوح.

وطبعاً ليس انهيار الدولة وحده هو الذي يدعو إلى جعل شن الحرب للحساب الخاص وبتكلفة خاصة جذاباً، هناك أيضاً سهولة في ربط اقتصاديات الحروب الأهلية بدورة رأس المال والبضائع في السوق العالمية. إلى جانب احتياطي النفط والمواد الخام الاستراتيجية والمعادن والذهب والماس، هناك بضائع غير مشروعة أو تعتبر غير مشروعة، يقوم أمراء الحرب بتمويل أنفسهم من خلال المتاجرة بها وكثيراً ما يستطيعون تحقيق ثروات من خلالها. وقد أثبتت التجارة بالمخدرات بخاصة أنها مربحة لأن هناك طلباً قوياً عليها في الدول الغنية. ولا يمكن القول بأنه لا ذنب للمسؤولين الاقتصاديين في المنظمة الدولية للتعاون الاقتصادي والتنمية OECD-Welt في أن الحرب قد أصبحت مرة أخرى عملاً مربحاً.

الإرهاب

كانت الحرب التي استعد لها المعسكران الشرقي والغربي لمدة أربعين عاماً ـ من أجل منع قيامها ـ نوعاً من المواجهة المتكافئة وقد تسببت في تكاليف باهظة. وباختصار يمكن القول إنّ أحد الطرفين وهو الاتحاد السوفيتي قد فشل في مواصلة سباق التسلح غير المنقطع، نتيجة للكلفة الباهظة. وأثناء انشغال مؤسسات أبحاث السلام والنزاعات بتحليل سباق التسلح في النزاع بين المعسكرين الشرقي والغربي ومحاولتها لقياس



مدى التكافؤ في هذا النزاع، تمكن مخططو واستراتيجيو الحرب الجديدة من أن يخرجوا ليس فقط من دائرة سباق التسلح، بل وعن كل قواعد الحرب المتكافئة وقواعد الإعداد لها. وهذا التصرف، الذي لم يلق اهتماماً كبيراً حتى الآن، والذي يعكس إلى حد ما الظروف المهيأة لخصخصة الحرب، أثبت أنه يمكن أن تكون له على المدى البعيد تبعات وعواقب أوخم من تلك التي للنزاع بين المعسكرين الشرقي والغربي.

ولا تعد الحرب غير المتكافئة قاصرة فقط على المناطق التي يسيطر عليها ما يسمى بالدولة الفاشلة، إذ استطاعت من خلال الإرهاب الدولي وتحديداً من خلال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أن تصل إلى مناطق الشمال الغنية.

تعد ا لهجمات الإرهابية جزءاً من الحرب غير المتكافئة، حيث يتم فيها تكبيد الخصم أكبر خسائر ممكنة بأقل مجهود شخصي. ولا تقتصر هذه الخسائر فقط على التدمير المادي المباشر، بل تتعدى ذلك إلى الآثار النفسية لتلك الهجمات. تدبر الهجمات بأسلوب يجعل موجة الذعر التي تنجم عنها أكبر بكثير من انفجار العبوة الناسفة، وهم لا يستهدفون شخصاً بعينه أو مبنى بعينه، على النقيض من عمليات الاغتيال المعتادة، بل يصوبون نحو بنية المجتمعات الحديثة التي تتميز بالهشاشة الشديدة والتي يرتبط سير الحياة فيها نوعاً ما بالحالة النفسية والتوقعات والأحاسيس، وهذا يجعل تلك المجتمعات من هذا المنظور الأكثر ضرراً. والخلاصة هي أن استراتيجي الإرهاب قد اكتشفوا أن المجتمعات الحديثة هي أسهل المجتمعات التي يمكن مهاجمتها وهي أكثر المجتمعات التي يمكنها أن تتضرر وتعاني من الهجمات الإرهابية.

إن إلحاق أضرار جسيمة بالعدو الذي لا يمكنك مضاهاته في قوته العسكرية، ليس بالضرورة اكتشافاً جديداً. ويمكننا تلخيص هذا الكلام قائلين إنّ حروب الفدائيين عبارة عن صيغة دفاعية من الحروب غير المتكافئة. والصيغة الهجومية لها تتمثل في الإرهاب الدولي. تنبع مصداقية الفدائيين من التأييد الشعبي لهم من قبل المدنيين، ويعتبر المدنيون العمود الفقري لمؤن وعتاد جماعات الفدائيين وهم الذين يوفرون لهم نسبة معقولة من المجندين ومن الذين يمكن تجنيدهم في المستقبل. إضافة إلى أن المدنيين يقومون بتغطية الفدائيين والتمويه على نشاطاتهم. وبمساعدتهم يقوم الفدائيون بتضليل الجيوش النظامية أو يستطيعون إظهار الظلم الذي تمارسه هذه الجيوش أمام الرأي العام العالمي.

والدور الذي يلعبه المدنيون في حروب الفدائيين، تقوم به البنية التحتية للبلد العدو الذي يريد الإرهابيون الدوليون مهاجمته. إنهم لا يستخدمون هذه البنية التحتية فقط بوصفها

Emile-Jean-Horace Vernet: "The Battle of Valmy", 1792. © National Gallery, London.



قاعدة لعملياتهم، بل ويقومون كذلك بتعديل وظائف هذه البنية التحتية لتصبح صالحة كسلاح. فبدءاً من خطف الطائرات، ومروراً بالخطابات المتفجرة، ووصولاً إلى فيروسات الكمبيوتر هناك مجموعة كبيرة من إمكانيات الهجوم التي تعد رخيصة نسبياً وسهلة الاستعمال ويمكن من خلالها تحقيق أقصى ضرر ممكن. رغم ذلك لا تهدف الهجمات إلى إصابة الجهاز العسكري للخصم أو على الأقل توجه له ضربات سطحية. الضربات الإرهابية موجهة إلى الاقتصاد. ولكي نعبر عن ذلك بشكل مجازي، نقول لا يهاجم استراتيجيو الحرب الإرهابية القبضة المصفحة للعدو المهاجِم، بل يضربون الأعصاب والأوردة الدموية التي يمكن لها أن تشل حركة الجسم كله وليس القبضة وحدها.

القانون الدولي

إذن فالحرب بين الدول صارت نموذجاً عفا عليه الزمن وأغلب الظن أن معايير القانون الدولي الخاصة بهذا النوع من الحروب، نظراً لأنها موجهة إلى الدول، صارت متقادمة أيضاً. وفي حين يحاول الأوروبيون في الوقت الراهن تطوير القانون الدولي الحالي، ويسعون إلى تكييفه مع أوضاع السياسة الدولية المتغيرة، بدأ الأمريكيون تدريجياً في التخلص منه. والمؤشر الأول على ذلك هو انسحابهم من عضوية هيئة قضائية دولية تقتص لجرائم الحرب، والثاني هو دعاية المثقفين الأمريكيين على مختلف مشاربهم لتصورات عن الحروب العادلة ويعد تخطيطهم لضربة عسكرية منفردة ضد العراق هو المؤشر الثالث.

إن الطريق الأوروبي هو محاولة لوضع الحد الأدنى من الشروط اللازمة للحرب المتكافئة، في الوقت الذي يتأرجح فيه الأمريكيون على طريق الحرب غير المتكافئة. يحاول الأوروبيون المحافظة على استقرار بنيان القانون الدولي، الذي نشأ في أوروبا وصار الآن هشاً، من خلال القيام ببعض عمليات الإصلاح. أما الأمريكيون فيميلون أكثر إلى عدم الاهتمام بإنقاذ هذا البنيان. أي الطريقين أصح؟ سيرتبط ذلك بشكل جوهري بمدى النجاح في تصدير الاستقرار إلى المناطق المعنية، سواءٌ أكان ذلك من خلال التدخل العسكري أم من خلال المساعدة الاقتصادية، وتحقيق الحد الأدنى من شروط التكافؤ هناك. إن وجود الدول ذات الحدود، مهما كانت ضعيفة، له تأثير هام، يتمثل في إمكانية معاقبة هذه الدول عند انتهاكها للقانون الدولي والتشريعات المنظمة للعلاقات بين الدول. أما الشبكات الإرهابية كالقاعدة فلا يمكنه توقيع العقوبات المعتادة عليها، وحتى الهجمات العسكرية المعتادة التي وجهت للشبكة في أفغانستان قد أظهرت أنها مزقت الشبكة فقط بصورة جزئية وأثرت في فاعليتها بعمق. يقوم الأوروبيون بمكافحة الإرهاب الدولي من خلال إعادة إنتاج الدولة التي إنهارت خلال الحروب الأهلية والحروب بين الشعوب، والعمل بصورة منتظمة على تضييق الخناق على الشبكات الإرهابية لكي لا تتمكن من غرس جذورها في هذه الدول، من أجل تحجيم وجود الإرهاب والظروف المهيأة لنشاطه. أما الأمريكيون الذين لم يشاركوا أيضاً بصورة جدية في إعادة إعمار أفغانستان، فيريدون على النقيض من الأوروبيين حرباً طويلة ومستمرة، والأفضل لو كانت دائمة على المنظمات الإرهابية والتي يستطيعون مهاجمتها دائماً، وفقاً لمبدأ الضرب والاختفاء، وذلك لتحجيم القدرة الهجومية لهذه المنظمات. يساورنا الشك في إمكان كسب هذه الحرب، وإنهائها بنجاح. ستشبه مثل هذه الحرب، الحرب على جبهة جديدة «للبرابرة» وستنشأ دائماً من جديد جبهة جديدة.

يتجلى عدم اقتناع الأمريكيين بجدوى الطريق الأوروبي في شل حركة الإرهاب الدولي من خلال استخدامهم لتعبير «الدول المارقة». وهم يعنون بذلك الدول التي يتهمونها بتغطية أو تأييد الإرهاب الدولي، لتحقيق إرادتها السياسية من خلال العنف، إذ إنها غير قادرة على شن حرب متكافئة أو إنها ستخسر كما في حالة العراق. إذا تناولنا مصطلح الدول المارقة بجدية، فسيعني ذلك الدول التي تستخدم أساليب الحرب غير التكافئة من الباطن في تعاملاتها. وتحصل هذه الدول مكاسبها مرتين، مرة على المستوى المتكافىء، ومرة على المستوى غير المتكافىء.

ستمضي الولايات المتحدة قُدماً في الطريق الذي اختارته، وستقوم على هذا النحو غالباً بمهاجمة العراق، الذي لم تقوض دعائم وجوده كدولة في عام ١٩٩١، نظراً لاعتبارات تتعلق باستقرار المنطقة. ستكون مهاجمة العراق بمثابة توجيه الضربة القاضية للقانون الدولي الحالي. وغالباً ما سيحل محله قانون دولي جديد. ولن يكون قانوناً يفصل من ناحية المبدأ بين طرفين متكافئين، بل سيكون قانوناً غارقاً في عدم التكافؤ، حسبما يبين الرجوع إلى تصور الحرب العادلة ذلك. وحتى تصور الجهاد والحرب المقدسة يعد تصوراً غير متكافىء. إنه يمثل إيديولوجية محاصرة الدولة. ولو فشل فك هذا الحصار فستصبح الكيانات غير المتسقة هي الصبغة السياسية المميزة لهذا العالم.

•

البروفيسور هيرفريد مونكلر، المولود عام ١٩٥١، أستاذ مادة السياسة في جامعة هومبولدت في برلين، ويُعد من روّاد المنظرين للحروب الجديدة.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Neue Zürcher Zeitung, 14.9.2002

Ulrich Ladurner أولريش لادورنر

«أدق» حروب التاريخ

ضحايا القنابل الذكية في أفغانستان

كابول - خوست

في أفغانستان مقابر عديدة تقع وسط الأحياء السكنية في كابول، لا تبعد سوى أمتار قليلة عن المارة وسائقي الدراجات وأطفال الشوارع والباعة في الأسواق، عن الجزارين والخبازين. إنها تمثل مفارقة عنيدة إزاء آلاف البشر الذين تكتظ بهم المدينة. تسترعي المقابر انتباه المسافر على الطرق الزراعية، فهي تتناثر على ضفاف النهر وفي الحقول وعلى سفوح الجبال. طوال ثلاثين عاماً من الحروب والمقابر تنمو وتتضخم وكأنها تريد كل يوم البرهنة على وجود لعنة مريعة فوق سماء أفغانستان. أينما يولي المرء وجهه: مقابر، مقابر، مقابر.

كم عدد الذين لقوا حتفهم منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١، أي منذ بداية التدخل العسكري للتحالف ضد الإرهاب في أفغانستان؟ كم عدد الجثث التي واروها التراب واعتبروها "ضحايا مدنيين"؟ إن هذا السؤال يمثل قضية مهمة بالنسبة إلى الغرب: إذ أن طريقة خوض حرب وما تسفر عنه من ضحايا قد تؤدي إلى أن يفقد المرء حقه في الدفاع عن النفس، بل إن هذا الحق يصبح في نهاية الأمر مجرد كلمات جوفاء. نعود إلى السؤال: كم عدد الضحايا؟

قبل أن نتحدث عن الأرقام، لابد أن نتكلم عن «نازلة». كانت تبلغ من العمر خمسة أعوام. وفي السابع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول كانت تلعب مع أترابها في فناء منزلها في حي ميكروريون في كابول، بناية رقم ٣٣، فجأةً انفجرت قنبلة في إحدى الثكنات العسكرية التي تبعد عن منزلها عدة مئات من الأمتار. بهلع بحثت نازلة مع الأطفال الآخرين عن ملجأ آمن داخل المنزل. ثم سقطت قنبلة ثانية حفرت لنفسها طريقاً في الأرض بعمق متر أمام مدخل البيت الذي أرادت نازلة الهروب إليه. لم تصبها شظايا القنبلة، لكنها تسببت في انهيار جزء من السور الذي دفن الطفلة تحت أنقاضه.

"كانت رائعة الجمال"، تقول الأم شكيلا نوري. ماتت نازلة مخلفةً وراءها فراغاً يكاد يبتلع العائلة بأكملها. الأب عبدول أضحى منذ وفاة الطفلة "مريضاً في رأسه"، على حد تعبير الأم. الابنة الثانية صوفيتا البالغة من العمر أربع سنوات لا تكاد تتوقف عن البكاء، وإذا توقفت تساءلت عن أختها نازلة، ثم تنخرط في البكاء ثانية. الابن البالغ من العمر ستة أعوام، زوهراب، تنتزعه من نومه الكوابيس التي يرى خلالها طائرات وقنابل وصواريخ، فيقوم وهو ينتفض انتفاضاً. الأم أيضاً تواجه "مشاكل مع أعصابها ورأسها"، على حد قولها. رداً على سؤال إذا كانت تذهب إلى طبيب، تتجه الأم إلى الدولاب وتخرج زجاجة: شراب نفروزين، وخليط من غليسروفوسفات وفيتامين «ب». هذا هو كل العلاج.

لابد أن نذكر هنا أن عائلة شكيلا نوري وجدت من يلتفت إليها في محنتها. بعد أن استسلم أتباع طالبان وفروا من كابول، زارهم في المنزل وفد أمريكي من عائلات ضحايا اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الإرهابية، وتحدثوا لبعض الوقت مع شكيلا نوري. «لقاء التصالح»، هكذا أسموه. وقبل أن يغادر الضيوف المنزل تركوا هدايا للأطفال الناجين من القصف: كرة قدم، وعلبة أقلام فلوماستر، وحيواناً من قماش.

كان يوماً طيباً لشكيلا، مليئاً بكلمات التعزية والأمل والوعد بتقديم يد العون، شعرت خلاله أنها لم تُنس، وأن هناك من يقاسمها همومها. ولكن شكيلا نوري لم تسمع كلمة عن ضيوفها بعد هذه الزيارة. والآن، فقد جفت الأقلام الفلوماستر كلها ما عدا اثنين، والحيوان القماشي اهترأ وبلي، ولم تبق إلا الكرة.

هذه باختصار حكاية عائلة نوري من كابول. والآن يمكننا أن نتحدث عن الأرقام.

قد تبدو هذه الحقيقة عادية ولا تثير الدهشة. حتى تتوافر لدينا الأرقام، لابد أن يكون هناك من يقوم بالإحصاء. ولكن أحداً لم يتول في كابول حتى الآن مهمة إحصاء عدد ضحايا العملية العسكرية، لا الحكومة ولا الجيش ولا منظمات الإغاثة.

"لن نعرف ذلك أبداً"

والسؤال هو: لماذا؟ وزيرة شؤون المرأة في أفغانستان سيما ثمار تجيب قائلة: "نحن مشغولون تماماً بأشيائنا الصغيرة، ببناء الوزارات مثلاً. ليس لدينا الوقت الكافي للقيام بمهمة

إحصاء عدد الضحايا." نظرة واحدة على مكتب ثمار تكفي لنتفهم ما تقوله. حتى الآن تخلو حجرات الوزارة من قطع الأثاث، ماعدا غرفتها التي تحتوي على بعض الكراسي والمكاتب، هبة من الأمم المتحدة. خزانة الوزارة خاوية. والوضع في معظم الوزارات الأفغانية الأخرى لا يكاد يختلف عن ذلك. في مثل هذه الظروف لا ينتظر الضحايا الشيء الكثير، ولا حتى أن يقوم أحد بإحصاء عددهم.

بغض النظر عن هذه الأسباب الوجيهة تبقى مشكلة أخرى أساسية: ما المصلحة التي تجنيها حكومة جاءت إلى السلطة بقنابل الولايات المتحدة في لم شمل الحكايات التي قد تسبب الحرج للإدارة الأمريكية؟ بل حتى المنظمات غير الحكومية لم تقم بإجراء إحصاء شامل، لماذا؟ جينو سترادا، رئيس المنظمة الإيطالية «إمرجنسي Emergency» يجيب: "في أيامنا هذه يكسب المرء الحرب بالسيطرة على قطاعين: وسائل الإعلام ومنظمات الإغاثة الإنسانية، وكلا الأمرين تحقق في هذه الحرب."

سترادا جرّاح يدير مستشفى بكابول تخصصت في علاج ضحايا الحرب. خلال القصف الجوي كان متواجداً هناك. آنذاك خبر بنفسه صعوبة إحصاء الضحايا في أفغانستان؛ بغض النظر تماماً عن وجود شخص ينوي القيام بهذه المهمة. ذات يوم خريفي، وبينما الطائرات الأمريكية تواصل قصفها، كانت ثلاث عشرة جثة تغطي مدخل مستشفى سترادا. أتى أقارب الضحايا بالجثث لرغبتهم في أن يقوموا بعملية الدفن خلال يوم وفقاً للتقاليد الإسلامية. لكنهم كانوا مفلسين، ولذلك أملوا أن يقدم سترادا لهم المساعدة. وبالفعل منحهم الطبيب بعض النقود، وعلى الفور اختفت العائلات مع موتاها، دون أن يتركوا اسماً أو عنواناً. ابتلعتهم أنقاض كابول.

خلال الحرب في أفغانستان ظل الضحايا في الأغلب بلا هوية. كل ضحايا حروب السنوات الثلاثين الأخيرة بقوا مجرد تقديرات. ما بين مليون ومليون ونصف أفغاني لقوا حتفهم خلال الغزو السوفيتي الذي دام عشرة أعوام. ما بين ١٠٠ ألف و١٥٠ ألف لفظوا أنفاسهم الأخيرة في كابول وحدها خلال الحرب الأهلية التي استمرت بين ١٩٩٢ و١٩٩٦، ولكن في مدن الأقاليم والقرى والجبال النائية أيضاً قضى العنف على حياة عدد لا يحصى من البشر. لا أرقام موثوق بها حول هؤلاء الضحايا، بل ليس بوسعنا حتى أن نحدد عدد سكان أفغانستان اليوم. آخر إحصاء للسكان يرجع إلى سنوات السبعينات. ملايين من البشر قضوا في السنوات التي تفصل بين الإحصاء واليوم، وملايين من البشر الذين فروا من ديارهم، ثم عادوا إليها؛ كتل بشرية دائمة الحركة. كيف يمكن إحصاؤها؟

ويظل السؤال حائراً: كم عدد الضحايا الذين قُتلوا خلال عملية التدخل العسكري في أفغانستان؟

Stanley Green: "Death in Grozny. Grozny, Chechnya, January 1995. Outline of a body in the snow"
Reproduction from the catalogue: M_Ars, Kunst und Krieg, Verlag Hatje Cantz 2003.
Exhibition at the Neue Galerie am Landesmuseum Joanneum, Graz.



الباحث الاقتصادي في جامعة نيوهامبشاير مارك هيرولد قام بإحصاء عدد الضحايا استناداً إلى الأخبار المنشورة عن الحرب، وتوصل إلى حد أدنى يبلغ ٣٧٦٧ قتيلاً بين المدنيين، وذلك في الفترة من ٧ تشرين الأول/ أكتوبر وحتى ٦ كانون الأول/ ديسمبر. ومن الممكن استكمال الإحصاء منذ السادس من ديسمبر/ كانون الأول يسمبر. ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر: هجوم على قافلة في إقليم بكتيا، ما بين ٥٠ إلى ٦٠ قتيلاً وفق بيانات حلفاء الولايات المتحدة. ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر: قصف جوي على قرية نيازي قالا، ١٠٠ قتيل حسب تقارير شهود العيان. على هذا النحو يمكن استكمال الإحصاء حتى اليوم، فمازالت الحرب مستمرة. في الإحصاء الذي قام به هيرولد، يقول جينو سترادا: "لم يأخذ في الحسبان القصف الجوي على قندهار الذي استمر عدة أسابيع." العدد الإجمالي لضحايا هذا القصف يقدرهم سترادا "بخمسة آلاف على أقل تقدير." إلا أنه يضيف على الفور: "ولكننا لن نعرف ذلك أبداً."

الموت أثناء صلاة العشاء

ويبقى سؤال آخر يبحث عن جواب: ما تعريف «الضحية المدنية» في بلد كأفغانستان يحمل كل رجل فيه سلاحاً؟ كيف يمكن أن نحدد مَن منهم خصم للولايات المتحدة في حربها؟ بالنسبة إلى رجال الجيش المقتنعين بجدوى حمل سلاحهم فإن القاعدة التي ربما ارتضوها هي: كل مَن لقي حتفه تحت القصف الجوي فهو على الأرجح واحد من ألد أعدائنا. "كانت هذه أدق الحروب في تاريخ الأمة"، يقول الجنرال تومي فرانكس قائد العمليات العسكرية في أفغانستان.

إن عملية مطاردة جلال الدين حقّاني، أحد أبرز الشخصيات في نظام طالبان، تبين بكل وضوح مدى دقة القاذفات الأمريكية ووحشيتها. كان حقاني واحداً من زعماء الحرب المعروفين تحت الاحتلال السوفيتي، وكان حتى أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ وزيراً للدفاع تحت إمرة زعيم طالبان المُلا عمر. بكلمات أخرى كان حقاني صيداً ثميناً، وهدفاً عظيماً للقنابل الأمريكية. في مساء الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر أصابت قنابل المقاتلات الأمريكية منزل حقاني ثلاث مرات، النتيجة مقتل امرأة في الثلاثين من عمرها كانت تملأ جرارها بالماء في الحديقة. في اليوم التالي قصفت الطائرات الأمريكية منزلاً في مدينة غارديز لاعتقادها أن حقاني متواجد هناك. في هذه الغارة قُتل أحد خدم المنزل وأحد أقارب حقاني. في ليلة السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر كان أحد المساجد وأحد الكتاتيب على أطراف مدينة خوست هدفَ القنابل الأمريكية لاعتقاد رجال الجيش الأمريكي أن حقاني مختبئ هناك. إلا أن الزعيم الطالباني لم يُصب بسوء، في حين قُتل ١٥ تلميذاً وعشرة أشخاص بالغين كانوا يؤدون صلاة العشاء في المسجد، وكان من بينهم أعضاء في تنظيم القاعدة. في الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر أغارت المقاتلات الأمريكية على منزل في قرية طوشا يسكن فيه مولاي سراج الدين. كان حقاني متواجداً بالفعل هناك، لكنه تمكن من الهرب في الوقت المناسب. سراج الدين وعائلته المكونة من أحد عشر شخصاً لقوا جميعا حتفهم. وفي نهاية المطاف سقطت القنابل في التاسع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر على مبنى مترامي الأطراف في زِنيكِل بالقرب من خوست في شرق أفغانستان. زير أمان لن ينسى هذه الليلة طوال حياته. "هنا"، يقول وهو يخبط بقدميه على الأنقاض، "هنا قُتل أربعة من أبنائي. وهناك."، ويشير بيد إلى سور متهدم، "هناك ماتت أمي مع زوجات أخوتي وستة من أطفالهن." على أطراف الشارع على مبعدة أمتار قليلة من البيت المدمر وارى زير أمان ١٢ فرداً من عائلته الترابَ. إنه يعترف دون لف أو دوران أن حقاني المطارد كان ضيفاً في بيته. "لكننا لم نعرف أنه هو، ولم تكن لدينا أي صلة بطالبان. نحن سعداء بزوال هذا النظام. ولكننا لم نجنِ من الأمريكان حتى الآن سوى الموت!"

حتى اليوم ليس هناك أثر يقود إلى جلال الدين حقاني. ملاحقتُه بأدق الأسلحة حصدت ثلاثة وأربعين مدنياً. ومع ذلك لم يتوقف الأمريكان عن ملاحقته. بعد مرور شهر على قصف منزل زير أمان حطت ثلاث مروحيات في زِنيكِل، ثم داهمت القوات الأمريكية عدة منازل. ظل الجنود في القرية حتى الخامسة صباحاً، "وعندما أقلعوا بالمروحيات كانوا قد ألقوا القبض على أربعة من أقارب زير أمان. ومنذ ذلك الحين لم يُعثر لهم على أثر.

رحل زير أمان إلى خوست، وذهب إلى المطار حيث أسس الجيش الأمريكي قاعدة عسكرية. هناك حاول أن يسلم الأمريكان رسالة كتب فيها بخط اليد هذه السطور: "نؤكد لكم أن أخوتي وأقاربي أبرياء. لهذا نرجو منكم أن تطلقوا سراحهم، أو أن تقولوا لنا على الأقل أين هم." لم يجد زير أمان أحداً يقبل استلام الرسالة منه. أما أسماء المخطوفين فهي: خان زير أمان، وغول زير أمان، ومحمد غول، وسراج الدين غول.

ترجمة: سمير جريس

المصدر: "Die Zeit", 12/2002

مانوتشير أميربور Manutshehr Amirpur

الحرب على العراق

الرؤية الإيرانية للأحداث

يكتسب الأسلوب، الذي تعاملت به الجمهورية الإيرانية مع الحرب في العراق، أهمية خاصة بالنسبة إلى التطور المستقبلي للمنطقة. فإيران من البلدان الكبرى في الشرق الأوسط، ذات الكثافة السكانية العالية، وتجمعها حدود طويلة مع العراق، تعيش على جانبيها قبائل تنحدر من نفس الإثنيات. وتأوي، إضافة إلى ذلك، أكبر معارضة شيعية مسلحة لنظام بغداد، وقد اضطرت في الثمانينيات من القرن الماضي للدخول في حرب طويلة وخاسرة ضد الجار العراقي، انتهت بإعلان لوقف إطلاق النار. ويختلف موقف إيران لهذه الأسباب من الحرب عن موقف البلدان العربية والإسلامية الأخرى بالمنطقة.

وفي الوقت الذي تساند فيه حكومات البلدان العربية بالمنطقة طوعاً أو كرهاً الحكومة الأمريكية في حربها ضد العراق، وفي الوقت الذي تتظاهر فيه شعوب هذه البلدان ضدها، فإن إيران، حكومةً وشعباً، تقف موقف الرافض للحرب الأمريكية ضد العراق. لكن هذا الرفض ليس نهائياً، فالموقف يتغير إذا ما تعلق الأمر بالإطاحة بصدام حسين ونظامه. وهذا أيضاً يجعل الجمهورية الإسلامية تختلف ـ لربما باستثناء السعودية والكويت ـ عن البلدان العربية. ففي اللحظة التي يتم فيها الاحتفاء بصدام حسين من طرف شعوب بعض البلدان العربية كبطل للجماهير العربية، وكعنوان للصمود ضد المستعمرين الجدد، فإن المرء في إيران يعتبره مجرم حرب، لم يتورع عن استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد أبناء شعبه، دون الحديث عن البلدان التي هاجمها. إنه نفس رأي الحكومات العربية، ولكنه رأي لا يتم التعبير عنه صراحة، بسبب الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها صدام خارج العراق لدى الجماهير العربية.

يرجع موقف الجمهورية الإسلامية المتناقض من الحرب في العراق إلى علاقتها بالولايات المتحدة الأمريكية وبالعراق معاً. ولو أن جهة أخرى غير الأمريكان هي التي تخوض الحرب ضد العراق، لوقفت إيران بصفها ولو بشكل غير مباشر. أليس من الطبيعي أن يقف المرء في إيران موقفاً ايجابياً من كل عملية تستهدف الإطاحة بنظام خاض ثماني سنوات من الحرب الدموية ضد الجمهورية الإسلامية الناشئة؟ ومع نهاية الحرب بحثت حكومة رفسنجاني على المستوى الدبلوماسي إمكانية الإطاحة بالنظام بمساعدة البلدان المجاورة وبمباركة سرية من الولايات المتحدة الأمريكية، لكن كل مشروع كانت تقف وراءه الجمهورية الإسلامية كان بالنسبةإلى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بالمنطقة باعثاً على الريبة والحذر. والآن، ها هم الأمريكان يعملون على قدم وساق من أجل تحقيق هذا المشروع من جانب واحد، ولكن هذا أيضاً لا يتوافق مع ما كان يريده الإيرانيون.

"السور العالي للشك"

هذه العبارة التي أطلقها خاتمي في حديث له مع CNN، حول علاقة الجمهورية الإسلامية مع الولايات المتحدة الأمريكية، لم تفقد صلاحيتها حتى يومنا هذا، حتى فيما يتعلق بالنوايا الحربية الأمريكية. فالنوايا والحجج التي أعلنت عنها الولايات المتحدة الأمريكية خلال استعداداتها للحرب، لم تقنع طبعاً لا الحكومة الإيرانية ولا نسبة كبيرة من الشعب الإيراني. فالأهداف المتغيرة للولايات المتحدة الأمريكية تزيد من فقدان الثقة بسياستها وتجعل من بعض نظريات المؤامرة تبدو كما لو أنها واقعية. لكن ما هي الحجج التي يسوقها الإيرانيون في رفضهم للحرب؟

صدام حسين يمتلك أسلحة الدمار الشامل

سيكون الإيرانيون آخر من يرفض هذه التهمة، فخلال الحرب الإيرانية ـ العراقية لقي المئات من الجنود الإيرانيين مصرعهم بسبب استعمال العراق لأسلحة كيميائية، ومازال الكثيرون منهم يعانون من تشوهات وعاهات بسبب تلك الأسلحة. ما يثير غضب الإيرانيين هو أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تحرك ساكناً عندما استعمل صدام حسين تلك الأسلحة ضدهم. بل خلاف ذلك، عرض عليه دونالد رامسفيلد شخصياً

«هذا المشروع ليس موجهاً ضد الإسلام ولا ضد الغرب. إنه محاولة تتوسل التحليل النفسي لمعالجة الرهاب (الفوبيا) في المجتمعين الغربي والشرقي، عبر كشفه وتفكيكه. إننا نحاول في المشروع الإسلامي (AES «شاهد على المستقبل») أن نسلط الضوء على الأخلاقيات والجماليات المتناقضة في عصرنا. فنحن نؤمن بأنّ الفنون المعاصرة لا تضع حلولاً لمشاكل عصرنا، لكن بمقدورها طرح أهم الأسئلة.»



AES (Tatiana Arzamasoa, Lev Evzovich, Evgeny Svyatsky), "New Freedom, 2006" (1997).
From: Islamic Project, Nova Jet Print/Lwd., 138 x 95 cm. Courtesy Galerie Sollertis, Toulouse.
© VG Bild-Kunst, Bonn 2003

يد المساعدة. ولم يتذكر المرء ذلك إلا حين تحول حليف أمريكا بالأمس إلى عدو. لماذا تكيل الولايات المتحدة الأمريكية بمكيالين؟ لماذا لا تعمل على نزع أسلحة الدمار الشامل من كل بلدان الشرق الأوسط؟ إذن، الأمر لا يتعلق بأسلحة الدمار الشامل. إن هناك أهدافاً أخرى تحت السطح.

صدام مجرم حرب

حقاً! ولكنه مجرم حرب منذ ٢٥ سنة! فنظامه هو الأول في العالم الذي استعمل أسلحة كيميائية. وبسبب حروبه العدوانية، دفع مليون شخص حياتهم. ولكنه لما كان حليفاً لأمريكا، تم تسويق نظامه كحصن حصين للغرب. ففي المرحلة التي خدم فيها مصالح القوة العظمى، تمت مساعدته بكل الوسائل. لقد خلق المرء من صدام حسين فرانكنشتاين الرهيب، الذي يتوجب اليوم التخلص منه. لماذا لم يتم إعلانه مثل ميلوزوفيتش مجرم حرب ولم يتم العمل على تقديمه للمحاكمة؟ إذن، إن الأمر لا يتعلق بالتخلص من مجرم، ولكنها سياسة السيطرة.

إن جهاز المخابرات المركزية الأمريكية نفسه لا يتفق مع فكرة أن صدام حسين له علاقة مع ما حدث في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. بل خلافاً لذلك، يرى رئيس هذا الجهاز أن الحرب ضد العراق سوف تدعم الإرهاب.

إن أسامة بن لادن يعتبر صدام حسين كافراً شأنه في ذلك شأن كل حكام المنطقة الذين يتوجب إعلان الجهاد عليهم. الحقيقة إن صدام حسين يدعم بطريقة غير مباشرة نوعاً آخر من «الإرهاب» في الوقت الذي يدعم فيه مادياً أسر الانتحاريين الفلسطينيين في إسرائيل. هذه التهمة الحقيقية تأتي من إسرائيل ويتم استعمالها في سياق خاطئ من طرف الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية جادة في محاربتها للإرهاب، فعليها أن تساعد في القضاء على الأسباب التي تكمن خلفه. وهذه الأسباب توجد في فلسطين. إنه لمن المؤسف أن الإرهاب أصبح أداة الحرب الوحيدة للفقراء، وأن الحرب على الإرهاب هي حرب الأغنياء.

صدام حسين لا يحترم قرارات مجلس الأمن

تبدو هذه الحجة، من وجهة نظر إيرانية، غير جديرة بالتصديق. فالولايات المتحدة الأمريكية وقفت لسنوات طويلة ضد إدانة هجوم صدام حسين على إيران وضد اتخاذ عقوبات بحقه من طرف مجلس الأمن الدولي. وهي لم تستنكر تجاهل إسرائيل سنوات طويلة لقرارات الأمم المتحدة، وهي نفسها أعلنت الحرب على بلد دون الحصول على موافقة الأمم المتحدة. الولايات المتحدة تهدد مجلس الأمن الدولي نفسه، الذي تدعي العمل على تحقيق قراراته، بتجريده من كل أهمية إذا لم يعمل على المصادقة على ما تريده. إنها فعلاً حرب عدوانية في حطام الديبلوماسية. فبعد نهاية الحرب الباردة تبعث الآن الحرب الحقيقية، كاستمرار للديبلوماسية بوسائل أخرى، وعلى منطقة بكاملها أن تتحمل، جراء ذلك، حالة من عدم الاستقرار. الحلفاء يلقون بقنابلهم وعلينا نحن البلدان المجاورة أن نتحمل العواقب (معارك على الحدود وتدفق للاجئين).

لا بد من الحرب الوقائية

لماذا تشعر الولايات المتحدة الأمريكية بأن العراق يهددها ولا تشعر بذلك، الدول المجاورة التي سبق للعراق أن هاجمها مثلاً؟ إن الأمر يتعلق بالمستقبل وليس بتهديد مباشر. القائد السابق للقوات الأمريكية بأوروبا، ويزلي كلارك، لا يرى أن العراق يمثل أي تهديد. مستشار كلينتون السابق لشؤون الأمن القومي يرى أن الهجوم على العراق لن يستفيد منه سوى الإرهاب. حرب وقائية باسم هذه الحجة الواهية هي بمثابة خرق للقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة. فما هو مسموح به هو الحرب الدفاعية، وإضافة إلى ذلك، يتوجب على القوة العظمى أن تنظر إلى الحرب الوقائية من زاوية أخرى، فمثل هذا الأمر يدعو للتخوف من أن تصبح هذه الحرب منهجاً يحتذى، وأن يشجع ذلك بلداناً مثل الهند وباكستان وإسرائيل على القيام بضربة نووية وقائية.

الحلفاء يريدون دمقرطة العراق

إن هذا الهدف الجديد المعلن للحلفاء، الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، يبدو بالنسبة إلى الإيرانيين غير جدير بالتصديق. فلا أحد من هذين البلدين قد ساهم في خلق علاقات ديمقراطية بالمنطقة. العكس هو الصحيح، فالبريطانيون أوصلوا عن طريق انقلاب سنة ١٩٢١ قائد القوزاق رضا خان إلى سدة الحكم، وبعد اثنتين وثلاثين سنة بعد ذلك، دبر جهاز المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً ضد رئيس الوزراء المنتخب ديمقراطياً "مصدق" وأعاد الشاه مرة أخرى إلى السلطة، ليحكم إيران لوحده حكماً مطلقاً حتى سنة ١٩٧٩. وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية بالمنطقة هم أبعد ما يكونون عن السلوك الديمقراطي. وإضافة إلى ذلك، فإن المرء يعتقد في إيران أن واشنطن، ونظراً إلى المعطيات الديمغرافية في العراق (٦٥ في المائة شيعة، ٢٠ في المائة سُنّة، والبقية أكراد وتركمان) لن تحترم إرادة الشعب التي من شأن انتخابات ديمقراطية أن تفرزها. فبسبب تخوفها من قيام دولة شيعية ثانية في المنطقة إلى جانب إيران، عمدت إلى وقف زحف الجنرال شوارتزكوف على بغداد

سنة ١٩٩١، فالقضاء النهائي على نظام الحكم في بغداد يعني وضع حد لحكم الأقلية السنّية للبلد وتولي الأغلبية الشيعية حكم البلاد. وسيكون من سخرية التاريخ أن تشارك الكويت والسعودية بالذات، كحلفاء سابقين في حرب الخليج الأولى، في بناء نظام ديمقراطي في العراق بقيادة شيعية. لكن المعطى الديمغرافي لم يتغير، إلا إذا كان الأمريكان يريدون تحويل العراق فعلاً إلى محمية لهم، يتولى الحكم فيها جنرال أمريكي، ويتم إعادة تنظيم المنطقة بأكملها على هذا المنوال. ما هو الجديد الذي سينتج عن ذلك، سيظل هذا سراً خاصاً بهم.

الحجج ليست دائماً أسباباً

الذي يعرف الحقد الإيراني على صدام حسين، سيتعجب من الحماس الكبير الذي أدانت به الجمهورية الإسلامية الهجوم الأمريكي على العراق. إن الولايات المتحدة الأمريكية تحارب ضد عدوين لدودين لإيران، هما طالبان والعراق، ونهايتهما لن تحزن أحداً في إيران، ولكن الأمور مع ذلك معقدة جداً. فالجمهورية الإسلامية تشعر بالتهديد بسبب التواجد العسكري الأمريكي بالمنطقة، وأنها محاصرة من أربع جهات بسبب هذا التواجد الأمريكي في أفغانستان، وسط آسيا، الخليج الفارسي والآن بالعراق. ولأن الرئيس بوش قد حسب إيران أيضاً على محور الشر، وهاجم أحد أعضاء هذا المحور رغم المعارضة العالمية، من أجل إعادة ترتيب الأمور هناك من جديد، وليس فقط هناك، فإنه لا يبعث على العجب إذا ما اعتبر حكام طهران أنفسهم الهدف القادم إذا ما كللت الحرب الأمريكية في العراق بالنجاح، سيكون ذلك أيضاً مناسبة لتسديد ديون قديمة على الجمهورية. فإيران تسعى إلى إنتاج أسلحة نووية، وتدعم الإرهاب، وتعرقل عملية السلام بالشرق الأوسط وتنتهك حقوق الإنسان. التهمة الرابعة هي فقط للتزيين، لذلك يمكن التخلي عنها ـ كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من بلدان المنطقة ـ إذا ما توقفت إيران عن سلوكها العدواني الذي لم يتغير منذ ٢٤ سنة. ولكن تهمة واحدة من التهم الأخرى كافية لدفع الولايات المتحدة الأمريكية للانتقام من عدوتها اللدودة إيران التي تعرضت بسببها للإهانة والإذلال خلال وبعد الثورة الإسلامية.

أولريش لادورنر يعمل صحافياً في إسبوعية «دي تسايت»، الألمانية.

ترجمة: رشيد بو طيب

المصدر: Die Zeit, 12/2002

Anja Niedringhaus: "Albanian tank, Kukes, Albania, 3.6.1999". Museum für Moderne Kunst, Frankfurt a.M.
Reproduction from the catalogue: M_Ars. Kunst und Krieg. Verlag Hatje Cantz 2003.
Exhibition at the Neue Galerie am Landesmuseum Joanneum, Graz.



بيتر بندر Peter Bender

حين أصبح الإغريق وقحين

أوروبا والولايات المتحدة

كيف تتصرف الدول الصغيرة إزاء قوة عظمى؟ ما أن يهزمها الغازي، حتى تعقب ذلك الوقائع القديمة من مقاومة وتحرير أو إستسلام وخضوع. وحين تكون تلك القوة العظمى دولة صديقة ومُحررة، فإن ذلك يفضي إلى مشاعر متباينة. كتب ألفريد غروسر قائلا: "كل رجل دولة أوروبية غربية أسير شعورين متناقضين: فهو من ناحية يشعر بالارتياح، لأن الولايات المتحدة الأمريكية موجودة، ومن ناحية أخرى يشعر بالغيظ، لأن حياة ورفاهية مواطنيه مرهونة إلى حد كبير بقرارات يتخذها رئيس دولة أجنبية وبعيدة."

وهذه مشكلة أزلية. في إطلالة صيف عام ١٩٦ قبل الميلاد، وفد كل وجهاء وأعيان البلاد إلى كورينت، ليسمعوا ما قررته روما بشأن اليونان. إن أهل اليونان طيلة قرن ونصف القرن عرضة لإضطهاد ملوك مقدونيا، والآن حارب الرومان الطاغية فيليب الخامس وأجبروه على التنازل عن كل ممتلكاته في اليونان. لقد خاضوا هذه الحرب من أجل حرية اليونان، لكن كل التجارب تشير إلى أنه يتم فقط استبدال سيد بآخر.



مع صوت البوق أمر المنادي المجتمعين بالصمت وتلا رسالة مجلس الشيوخ: "إننا نمنح الحرية والإدارة الذاتية، من غير أن نسمح بالاحتلال ومن دون المطالبة بدفع جزية"، ثم تبع ذلك أسماء المدن والشعوب التي كان يحكمها حتى ذلك الوقت المقدونيون.

كثيرون لم يصدقوا ما سمعوه، فكان على المنادي أن يتلو رسالته مرة أخرى، ثم تفجر، حسب ما رواه المؤرخ بوليبيوس، صخب يصم الآذان بطريقة تجعل من المستحيل، إعطاء تصور للقارئ المعاصر.

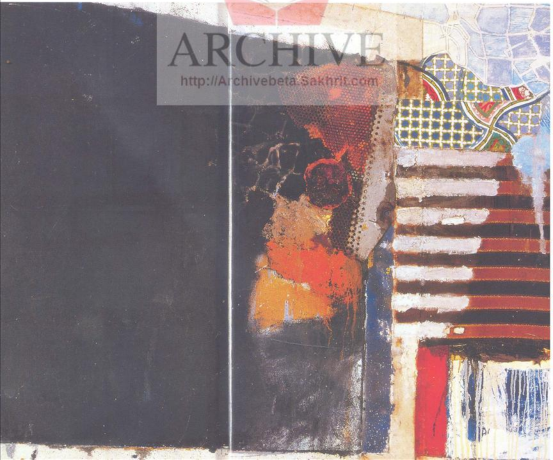
وفى الرومان بوعدهم: قاموا بحل القضايا الملتبسة في بلاد اليونان وسحبوا فيالقهم بعد سنتين من ذلك. صنعوا السلام، بيد أنهم وحدهم من استطاع أن يحافظ على هذا النظام. كان عليهم أن يلعبوا دور الحامي والوسيط والحَكَم وسرعان ما أبقوا على دورهم الأخير. فالمحرر أضحى سيداً، والمتحررون انتابتهم مشاعر متناقضة، على حد وصف غروسر.

إلى ذلك عبر سياسيان من اتحاد المدن الإغريقية القديمة في بلوبونس عن مشاعرهم. قال أحدهم: "هناك مسألتان مهمتان في السياسة، وهما: الكرامة والمنفعة. من يقوى على حفظ كرامته، عليه أن يفعل ذلك. ومن لا يستطيع ذلك، عليه أن يكتفي بمراعاة مصالحه. لكن أن نخطىء في هذه المسألة وتلك، فهذه سياسة خاطئة. ويقع في إثم إزاء هذه السياسة، من يلبي كل أمر بلا قيد ولا شرط، بينما يقوم بتنفيذه كارهاً ومتبرماً. لذلك فان أمامنا خيارين لا ثالث لهما: إما أن نثبت، أننا قادرون على أن نقول لا، أو أن لا يتجرأ أحد منا، على ادعاء ذلك. حينذاك علينا أن نلبي كل رغبات الرومان عن طيب خاطر."

أما قائد الحزب الآخر فقد استخلص نتائج عكسية: "أنا لست غريباً عن هذا العالم إلى هذا الحد، بحيث لا أميز بين قوة الرومان وقوتنا. لكن لكل قوة عظمى ميول طبيعية لاضطهاد المغلوبين بشدة وبإستمرار. فما هي مصلحتنا هنا يا ترى؟ أعلينا ألا نقاوم تلك الميول، وإنما أن ندعمها، بحيث نصبح في القريب العاجل مجرد ألعوبة بيد الرومان؟ أم أنه، على العكس من ذلك، من مصلحتنا، أن نقاومهم، طالما كنا نستطيع فعل ذلك؟ نحن نستطيع ذلك، لأننا قد برهنا بشكل ساطع، أننا حلفاء للرومان يعتمد عليهم!"

حين نضع هنا بدل كلمة «الرومان» كلمة «الأمريكان»، يصبح هذا نقاشاً راهناً لساسة أوروبا في علاقتهم بأمريكا. الظروف والصعوبات تبدو متقاربة. فما أشبه اليوم بالبارحة: كلا الطرفين يتحدثان كثيراً عن الصداقة والتضامن الثابت ضد عدو قوي، الرومان والإغريق ضد القوى العظمى المتمثلة في المقدونيين والسوريين، أمريكا وأوروبا الغربية ضد الاتحاد السوفيتي. بيد أنه منذ تم التغلب على الأعداء، أخذ الحلفاء الصغار يحسون باضطراد بتبعيتهم. فلا الرومان ولا الأمريكيون جحدوا استقلالية الإغريق والأوروبيين. فالرومان لم يكن لديهم حتى جيش في بلاد اليونان، أما الأمريكيون فإن لديهم وحدات عسكرية في أوروبا، وهي موجودة بناء على رغبة الأوروبيين أنفسهم. في الواقع هناك من يناصب روما العداء، خاصة في أوساط الشرائح الاجتماعية الفقيرة،

Mohammed Omar Khalil: "Under the Sun, 2000". Reproduction from the catalogue: Broker Letter. Contemporary Art from Arab Countries. Exhibition at the Kunsthalle Darmstadt 11.3.-21.5 2003



وكذلك هناك نزعة عداء لأمريكا، بيد أن كل المسؤولين السياسيين مقتنعون بضرورة التحالف مع روما وأمريكا.

كان على كلا الطرفين، بالطبع، أن يتساءلا في الماضي والحاضر: ماذا يمكننا أن نفعل، من دون الرجوع إلى روما أو واشنطن في هذه المسألة أو تلك؟ على نطاق السياسة الداخلية في كل شيء تقريباً، ولكن في عمل القليل على صعيد السياسة الخارجية. أخذ اتحاد المدن الإغريقية القديمة يتورط في نزاع مستمر مع روما، كلما حاول أن يضم بقية المدن الإغريقية إلى الاتحاد.

كان مجلس الشيوخ في روما يتدخل باستمرار في نزاعه الدائم مع اسبارطة، سيغامر الأوروبيون ويدخلون في نزاع مع واشنطن، أن هم أتبعوا مع إيران سياسة مغايرة، لما تستحقه «دولة الأوغاد».

متى والى أي مدى يمكن قول لا، حين ترغب القوة العظمى بشيء ما؟ لا ريب من ذلك في المسائل الاقتصادية، في القضايا الثانوية أحياناً، في القضايا الجوهرية أبداً، وما هو جوهري، تقرره روما وواشنطن. يوصي بعض الإغريق بعدم انتظار تلقي أوامر الرومان باستمرار، إنما أن يسبقوهم مبادرين بين الحين والآخر، هذا يعني في جمهورية ألمانيا الاتحادية "التعجل في إعلان الطاعة". فريق آخر من الإغريق يرى، إذا لم تنفع كل المفاوضات والالتماسات للوصول إلى تفاهم، علينا أن نذعن، شريطة أن يكون ذلك مشفوعاً باحتجاج.

ما العمل، حين تتعارض رغبات الرومان مع الدستور؟ يقول ليكورتاس قائد الحرب، أعلى منصب يطرح على الناخبين، إن أوضحنا للرومان أن على الإغريق أن يخرقوا دستورهم، كي يلبوا أوامر مجلس الشيوخ، فإنهم سيتفهمون ذلك. بيد أن الرأي المضاد يرى، أن لا القسم ولا القانون ولا الميثاق المحفور في الحجر سيكون له مفعول اكبر من إرادة الرومان. الدستور الألماني يحرم عقوبة الإعدام. لهذا يطرح هذا السؤال: إلى أي مدى يمكن ويحق لألمانيا أن تقدم مساعدة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية في قضية حول الإرهاب، يكون المتهم فيها مهدداً بعقوبة الإعدام؟

ماذا يحدث، عندما تخوض القوة العظمى حرباً، لا تروق للحليف الصغير؟ حين خاضت روما حرباً ضد برسويس، ملك مقدونيا عام ١٧١، نادى حزب روما المتطرف في اتحاد المدن الإغريقية القديمة بدعم بلا حدود، بينما كانت الأكثرية ترى، على عكس ذلك، أنه لا ينبغي تقديم مساعدة عسكرية إلا بناء على طلب صريح.

ماذا سيصنع الأوروبيون، إذا هاجم الرئيس بوش العراق؟ أيرسلون جنوداً بمحض إرادتهم أم لا يكون ذلك إلا بناءاً على طلب؟ جنود للمشاركة في الحرب أم لمجرد حفظ النظام بعد الحرب؟ هل يتحملون تكاليف الحرب ويقومون، فيما بعد، بإزالة حطام القنابل الأمريكية؟ الرفض قد يؤدي إلى العزلة، وقد تفضي الحماسة إلى الإحراج. مثلما قامت روما بإعادة الجنود الإغريق الخمسمائة، التي سبق لها أن طلبتهم، إلى بلدهم، كذلك تجاهلت أمريكا تجاهلاً تاماً المساعدة التي تقدم بها أعضاء حلف الناتو الأوروبيين.

كان الإغريق، آنذاك، كالأوروبيين اليوم، يرون أنفسهم واقعين في نفس مواطن الضعف. كان إنعدام وجود وحدة إغريقية شاملة أكبر بكثير من إنعدام وجود سياسة خارجية موحدة للإتحاد الأوروبي. مما سهل كثيراً على الرومان والأمريكان، أن يوقعوا بين حليف وآخر، فيكافؤن المتحمسين ويعاقبون من يصعب قياده، لينتهي ربما إلى عزلة حتى في معسكره بالذات.

كثيراً ما كان وما يزال يتم تحاشي نشر التباين في وجهات النظر التي لا تنسجم مع مواقف القوة العظمى في البلد المعني، إنما يجري إبلاغها مباشرة إلى القوة العظمى. طالب المعماري الإغريقي كاليكراتس روما بكل صراحة بالتدخل في بلاد اليونان: "إذا ما اكتفى مجلس الشيوخ بمجرد إعطاء إشارة استنكار، فإن منتقدي روما سيغيرون رأيهم على الفور، وينضمون إلى حزب روما، وستلحق بهم الجموع عن خوف، لا عن قناعة." بيد أن ادموند شتويبر لن يصل إلى هذا المدى، حين يزور أمريكا، ليعلن هناك بوضوح: "أن تعكير صفو العلاقات مع أمريكا لا يمثل المجتمع الألماني برمته." لكنه سيعلن كذلك الشقاق القائم على الصعيد الداخلي في ألمانيا أمام القوة العظمى، التي يجري النزاع حولها. ستصبح روما وأمريكا أكثر قوة والحلفاء الصغار التابعون أكثر تبعية.

من ناحية أخرى يعد الرد المحتد على صعيد السياسة الخارجية "لدى الشعب موقفاً مشرفاً وسليماً"، وهذا ما يستغله الساسة الإغريق. كان غيرهارد شرودر هو الآخر يعرف، أن الرفض الحاسم لحرب أمريكية على العراق ستجلب له اصواتاً. في كلا الحالتين تتداخل، وفقاً للمفهوم المعاصر، الاعتبارات الاجتماعية والوطنية مع بعضها البعض. مع تنامي البؤس في بلاد اليونان، اقتصر تشجيع الرومان على المؤسسات فقط. النقد الأوروبي الموجه إلى أمريكا لا يستهدف القوة العظمى فحسب، وإنما السيطرة الرأسمالية أيضاً.

بيتر بندر مؤرخ ألماني ولد عام ١٩٢٣.

ترجمة: *علي أحمد محمود*

المصدر: Kafka, Nr. 8, 2002

ستيفن كلبيرغ Stephen Kalberg

سوء تفاهم ذو جذور

الفروق في الثقافة السياسية بين ألمانيا وأمريكا

هناك اعتقاد سائد في الولايات المتحدة بأن المجتمعات الديمقراطية التي تعتمد على اقتصاد السوق تشبه إلى حد كبير النموذج الأمريكي أو أنها ستصير في القريب العاجل شبيهة به. إنهم يعتقدون أن «الضرورات الموضوعية» التي تفرضها كل من الرأسمالية والديمقراطية، تؤدي إلى تلاشي كل الفوارق التاريخية والثقافية. ويمكننا، على المستوى العالمي الحديث فعلاً عن «التطابق». لكن إذا دققنا النظر في المقارنة بين الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الديمقراطية التي تعتمد على اقتصاد السوق، فسنكتشف على الفور فروقاً واضحة، وسنتبين أن جوانب «الاختلاف» أكبر. ما هي الفوراق ذات الخصوصية في الثقافة السياسية لألمانيا والولايات المتحدة؟ وكيف ينشأ، بناء على تلك الفوارق، هذا النوع من«سوء الفهم المتجذر» بين ألمانيا وأمريكا؟ يركز هذا التحليل على محورين أساسين: مفهوم الدولة وتصنيف السلوك «السياسي ـ الأخلاقي».

في الولايات المتحدة تم تحديد مفهوم الدولة منذ البداية بطريقة فريدة. فميثاق الحقوق Bill of Right وقوانين الحريات السياسية يشكلان جوهر وجود هذه الأمة الحديثة. وقد اهتم الآباء المؤسسون للدولة الأمريكية اهتماماً كبيراً بمنع تدخل الدولة في عمليات التطور الاجتماعي. فمهمة الدولة هي ضمان أن يتم هذا التطور في هدوء من خلال حمايتها للنقاش الحر وتبادل الآراء علنياً. وقد كان الأمريكيون في بداية تأسيس الدولة على قناعة بأن تطور المجتمع العادل الخير، سيتم من خلال تخلي الدولة عن أية محاولة للتأثير في التحولات الاجتماعية والاقتصادية. كان التقدير الكبير لقيم تحمل المسؤولية والاعتماد على الذات والإيمان القوي بقدرة الإنسان الفرد في التغلب على الصعوبات، من الأفكار السائدة في ذلك الوقت. ورغم توسع الرأسمالية السريع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما تبع ذلك من سلبيات، فإن هذا لم يدفع بالأمريكيين إلى التراجع عن مفهومهم الخاص عن تدخل محدود للدولة واعتماد كبير على الذات.

وذاك التعريف للدولة يتناقض بشكل صارخ مع المفهوم الألماني للدولة. فوفقاً للاعتقاد الألماني، أدى كل من الرأسمالية والتمدن والعلمنة إلى زعزعة المجتمع القديم، وحدوث فوضى سياسية واجتماعية غير عادية. وتبين أن الدولة هي المؤسسة الوحيدة التي لديها السلطة الكافية للحفاظ على وحدة المجتمع. وعلى هذا الأساس نما الاعتقاد بأنها ملزمة بممارسة دور نشط. وكانت «إجراءات الحماية والرعاية» المتنوعة تجاه شعب مظلوم ولديه الاستعداد الكامن للتمرد، تعد في القرن التاسع عشر إجراءات معقولة وضرورية على الصعيد السياسي. لا بد للدولة أن تكون هي القوة المحركة وراء مطالب «المسؤولية الاجتماعية» و «العدالة الاجتماعية»، ولا بد أن تلعب دوراً نشطاً في توجيه الاقتصاد، لمجابهة عدم الاستقرار الاقتصادي بصورة فعالة.

تُلقي هذه الفروقات النموذجية بظلالها الطويلة لتصل إلى الوقت الحاضر. فقوانين الحرية الشخصية وحرية التعبير عن الآراء السياسية وحماية الفرد من الدولة تأتي في ألمانيا، مقارنة بالولايات المتحدة، في مرتبة أدنى، بعد مطالبة الدولة بتحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الحد الأدنى من التضامن الاجتماعي، وضمان أساس المعيشة للأفراد وتوزيع ثروات المجتمع بالتساوي. وبينما تدور المناقشات السياسية في ألمانيا، في أحيان كثيرة، حول أفضل طريقة لتخفيف المظالم الموهومة للنظام الرأسمالي، تركز المناقشات في الولايات المتحدة أكثر على تأثير الدولة في الحريات الفردية وفي المسؤولية الشخصية للفرد عن ذاته. وفي الواقع هناك فرضية منتشرة في الولايات المتحدة ترى أن البشر قادرون على التعامل مع تحديات الرأسمالية. هذه الفرضية تعوق تطوير أخلاق خاصة بالمسؤولية الاجتماعية والعدالة الاجتماعية.

ويشكل تراث الكنائس والطوائف البروتستانتية الزاهدة (البيوريتانية)، ومنها المعمدانيون والمستقلون والبرسبيتاريون والميثوديون والكويكرز، ليومنا هذا، مركز الثقل في الحياة السياسية بالولايات المتحدة. وقد شعر المؤمنون في هذه الجماعات الدينية بالتزام عميق في كل مجالات الحياة اليومية واتبعوا بحزم تعليمات الرب حيث اعتبروا أنفسهم مكلفين بمهمة نبيلة وهي تمجيد الرب على الأرض وتأسيس مملكة السماء. وحيث إن المؤمنين كانوا أيضاً هم الذين يقررون لأنفسهم إن كانوا قد بلغوا «خلاصهم» أم لا، أصبح الاعتماد على الذات أمراً مرغوباً. لم يقم أي قس بالتوسط بين المؤمنين وربهم، لأن الاعتراف قد ألغي

وبذلك صار سلوك المؤمنين مراقباً في تفصيلاته من قبل كل أعضاء الكنيسة أو الطائفة. وبناء على ذلك كان عليهم أن يتجنبوا كل السلوكيات المرذولة.

وبذلك نما الدافع إلى التحلي بالخلق الحسن، أو على الأقل إعطاء الانطباع بذلك. وإلى جانب المسؤولية الشخصية كانت هناك ملامح أخرى تميز بها الاعتقاد الديني الحقيقي وهي التعامل بانفتاح شديد وعدل وثقة بالآخر - فنحن جميعاً أبناء الله ولذلك يجب أن تتم معاملتنا بسريرة نقية واحترام. أصبحت البروتستانتية الزاهدة من دعاة هذه القيم الأخلاقية وتخللت هذه القيم، طمعاً في مملكة السماء، العلاقات النفعية المميزة للسياسة والاقتصاد وقد أدت إلى تغيير هذه العلاقات. وهكذا صار للإعتقاد الديني بهذه الطريقة توجه للمجتمع المدني، بل وللاقتصاد. في الأماكن التي هيمنت فيها هذه الكنائس والطوائف، صارت القيم المبنية على التضامن والتكافل، كالانفتاح والعدل والثقة، هي المعيار للسلوك الأخلاقي.

مع تطور المدن وتراجع البروتستانتية الزاهدة فقدت هذه المعايير قيمتها. رغم ذلك لا تزال تنعم بالحيوية والاستمرارية في الأوساط العائلية وبين الجيران والجمعيات الأهلية. وبهذه الطريقة استمر وجود قيم التضامن الاجتماعي في صورة مثل علمانية كمبدأ العدالة العامة، والإنصاف، والطمأنينة الاجتماعية، وتكافؤ الفرص وأصبحت مُثلاً عامة civic ideals وخلقاً عاماً civic ethics. بعبارة أخرى، رغم أنه كثيراً ما يساء استخدام هذه المثل وكثيراً ما تنتهك، فقد غدت معياراً للسلوك، وغذت الأمل في إمكانية وجود تعامل على أساس أخلاقي في مجالي السياسة والاقتصاد. وبهذه الطريقة تصبح للمواطن القدرة على المساهمة في تطبيق هذه المثل، من وقت لآخر وأحياناً في مواقف حاسمة. لا تزال هذه القيم التكاملية للمجتمع المدني فعالة ويمكن التعرف عليها بوضوح ليومنا هذا.

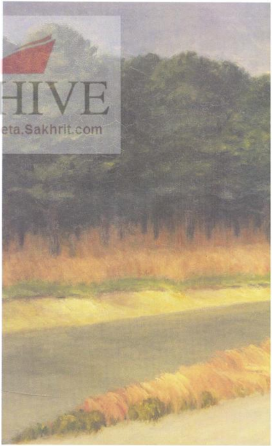
ولهذا التأكيد على تلك القيم العامة تأثير محدد، فنظراً إلى الثقافة السياسية الأمريكية تعول بدرجة كبيرة على الحرية

"بنزين". *Edward Hopper: "Gas", © Photo SCALA Florence, The Museum of Modern Art, New York, 2002*



الشخصية وعدم تدخل الدولة، تمكن السلوك الأخلاقي من أن ينتقل بصورة غير معتادة إلى مجالات أخرى، بعيداً عن نطاق العلاقات الشخصية، واستطاع أيضاً أن يتحلل من السلطة السياسية الدنيوية ومن الدولة. انتشر السلوك الأخلاقي في المجال السياسي والاقتصادي الأمريكي من خلال عدد لا حصر له من الجمعيات الأهلية، وكان لذلك أثر لا يستهان به في الحياة السياسية. تتنافس المثل السياسية الأخلاقية مع السلوك النفعي وهو السلوك المعتاد في مجالي السياسة والاقتصاد. من آن لآخر تخللت القيم العامة طرق التعامل في هذين المجالين وأحدثت تغييرات بهما، وأسست بذلك الصيغة الأمريكية الخاصة للتضامن الاجتماعي. كانت الدولة وقوانينها مؤسسات بعيدة وكان دورها في الاندماج الاجتماعي ثانوياً.

لكن السلوك السياسي الأخلاقي في ألمانيا له وضع مختلف. فالكنيستان اللوثرية والكاثوليكية كانتا تفتقدان إلى العناصر المكونة للزهد البيوريتاني، الذي يُشعر الأفراد على



المستوى الشخصي، بأنهم هم وحدهم مسؤولون مسؤولية كاملة عن حياتهم، ومن ناحية أخرى تؤثر قيم الانفتاح والإنصاف والطمأنينة الاجتماعية، بسبب الاتجاه الجواني للزهد، بدرجة كبيرة ومكثفة على مستوى التعامل اليومي للمؤمن، وتصبح ثقلاً مضاداً للعلاقات النفعية. بدلاً من ذلك جاءت في ألمانيا مع العمران والعلمنة وتطور الرأسمالية الحديثة في القرن التاسع عشر، عادات شبه إقطاعية تتميز بالخصوصية والهيراركية على المستويين الشخصي والاجتماعي. وهذه التوجهات السلوكية لم تفضِ إلى وجود ثقل مضاد يتناسب مع حسابات المنفعة الخاصة لعلاقات بعينها، يمكن تطويره مع انتشار الرأسمالية الحديثة. وهكذا ساد الاعتقاد بضرورة تنشيط جهاز الدولة القوي بأكمله لخلق هذا الثقل المضاد، وعلى وجه الخصوص بسبب العلمنة المتنامية في المجتمع. تبعاً لذلك ظهرت الدولة والقوانين كمرجعية أساسية للأمان الاجتماعي والإنصاف ولأخلاق عامة، على عكس ما هو الحال في الولايات المتحدة حيث شكلت الكنائس والطوائف هذه المرجعية. ومن ضمن الالتزامات الأخلاقية للدولة الألمانية تنفيذ مجمل القوانين والتشريعات، وضمان تساوي الجميع أمام القانون، والتحكم في السياسة الاقتصادية الرأسمالية وتوجيهها، ودعم المساواة الاجتماعية والرفاهية والتضامن الاجتماعي من خلال مجموعة من الإجراءات.

وهكذا صارت الدولة في ألمانيا من أهم مرجعيات السلوك السياسي الأخلاقي. ولربط وبلورة ما هو «أخلاقي» بكيان الدولة أثران مهمان، يبرزان أكثر الفوارق بين ألمانيا والولايات المتحدة. صار السلوك السياسي، الأخلاقي أكثر تركيزاً، وارتبطت شرعية المجال السياسي ارتباطاً وثيقاً بنجاح الدولة في التخفيف من حدة السلبيات والمظالم الناتجة عن الرأسمالية والعلمنة والعمران. وفي حين تضم «الساحة السياسية» في الولايات المتحدة مجموعة كبيرة ومتنوعة من الجمعيات الأهلية تعبر عن مثلها الأخلاقية المتصارعة مع السلوك النفعي والعلاقات النفعية المحضة، تقوم الدولة والأحزاب السياسية في ألمانيا بهذا الدور.

ما هي المشكلات، ونقاط الضعف والقوة في الثقافة السياسية الأمريكية المعاصرة؟ نظراً إلى أن السلوك السياسي الأخلاقي المتغلغل في المجتمع الأمريكي يتمثل في الصراع الدائم بين المثل الخلقية العامة وحسابات المنفعة الأنانية، ونظراً إلى أنه لم يرتبط لذلك أبداً بصورة وثيقة بالدولة وإنجازاتها، لم يكن ممكناً لدولة الرعاية الاجتماعية الشاملة أو الدولة التي تعتمد نظاماً اقتصادياً مختلطاً أن تحصل على شرعيتها. لم يمكن للتركيبة المكونة من الدولة الضعيفة والاعتماد الكبير على الذات، أن تحمي المواطنين من الانكسارات العديدة التي لا مفر منها في المجتمعات

الصناعية المتقدمة. وهكذا تتفاقم المشكلات الاجتماعية في أمريكا بصورة لا يمكن تخيلها إذا ما قورنت بالدول الصناعية الأخرى. جرائم العنف والفقر المنتشر والتشرد، الانخفاض الرهيب في معدل المداخيل والثروات يهدد في الوقت الحالي التماسك الاجتماعي.

من ناحية أخرى تتمتع الثقافة السياسية الأمريكية ببعض جوانب القوة. إن التأكيد غير العادي على حقوق الأفراد، والاستقلالية، والدور المحدود للدولة في سياق السلوك السياسي الأخلاقي المبني على أساس المثل العامة المكونة من العدل والإنصاف، وتكافؤ الفرص، والطمأنينة



Jasper Johns: "Flag, 1972/94", © VG Bildkunst, Bonn 2003

الاجتماعية، يشكل تركيبة خاصة بالولايات المتحدة وهذه التركيبة تدعم وجود مشاركة قوية ومستمرة للمواطنين وتدعم النشاطات التطوعية. ومن بين خصائص الثقافة «السياسية» الأمريكية أيضاً أنه يتم إدراك تلك الهوة بين الواقع «غير العادل» والمثل والمبادئ العامة ويتم مواجهة ذلك من خلال الجمعيات الأهلية، بدلاً من انتظار أن تقوم الدولة والأحزاب بدور فاعل في هذا المجال. ففي كثير من الحالات أدت الهوة الشاسعة بين مبدأ المساواة والخبرة الواقعية لعدم المساواة والتمييز إلى دفع المواطنين للحركة. فالصراعات من أجل تحرير العبيد ومن أجل حق الانتخاب وحركة الحقوق المدنية والحركات النسائية وحركات المثليين، لا تعدو أن تكون بضعة أمثلة من بين نماذج أخرى كثيرة.

لكن هناك خطر كامن في هذا العنصر الرئيسي المكون للثقافة السياسية الأمريكية: يكمن في تأثير وإلزام المثل العامة والذي قد يكون كبيراً أحياناً، خطر إمكان تحول الالتزام بشيء ما إلى حملة أخلاقية. ويرتبط ذلك باستمرارية الإرث البروتستانتي الزاهد، الذي يهدف دائماً إلى إنتاج عالم أخلاقي. في هذا السياق يجدر بنا تأمل عنصر مهم آخر، إذ تستطيع الثقافة السياسية الأمريكية أن تعلي من شأن المثل العامة وتملأ المواطنين بالأمل، والحماس الحقيقي لبلوغ هذه المثل. ويرجع ذلك إلى افتقاد الأسس الراسخة الأخرى للتماسك الاجتماعي أي الانتماء العرقي المشترك واللغة المشتركة والدين والتاريخ. وعلى النقيض من الوضع في ألمانيا، يتعاظم في أمريكا هذا الخطر بسبب عدم السماح للدولة بممارسة دور أكبر في عملية الاندماج داخل المجتمع.

وهنا يكمن المأزق الرئيسي للموقف الأمريكي، وهنا أيضاً يكمن تفرده. بانتظام تعضد الحملات الأخلاقية المتكررة صلب النشاط السياسي وتُثبت من خلال ذلك أنها ضرورية للتضامن الاجتماعي الذي يحد من سطوة الحسابات الأنانية والمصلحة الذاتية التي تفتت وحدة المجتمع، والتي لا يمكن للأحزاب السياسية ولا لدولة تتمتع بنظام اجتماعي قوي أن تحد من هذه السطوة. وتحمل مثل هذه الحملات الصليبية في طياتها أحياناً شيئاً من عدم التسامح وتهدد بشكل أساسي الحريات الفردية التي تحظى بتقدير كبير في الولايات المتحدة. تتكرر الحملات الأخلاقية بانتظام وعادة ما تتخذ صيغاً غير مضرة، مثلاً من أجل حقوق الإنسان، وضد الظلم والتمييز والجريمة وتعاطي الكحول والمخدرات والفساد الإداري والتدخين والإباحية والدعارة وتدخل الدولة وما إلى ذلك. لكنه أحياناً تكون هناك حملات صليبية ضد «الشر»، المكارثية مثلاً. وأحيانا تهدف هذه الحملات إلى إرغام الشعوب الأخرى على تبني القيم والمثل الأمريكية، وهنا نتذكر حرب فيتنام والسياسة الخارجية التبشيرية.

إن الإبقاء على التوازن الصعب بين التوجه السياسي الأخلاقي والحريات الشخصية يمثل دائماً تحدياً للثقافة السياسية الأمريكية، ويزداد مقدار الفوضى الاجتماعية داخل هذا التضامن المهلهل القائم على أسس قيمية. مع ذلك فأي تخفيف لحدة الصراع والتوتر التابع لهذا التوازن سيؤدي في النهاية إلى حدوث انقسام، حيث سيتعرض مصدر مهم للرغبة الأمريكية الشديدة في الإنجاز والحيوية والانفتاح للخطر. وبالذات هذه الرغبة في الإنجاز، تتيح المجال للابتكارات العلمية والثقافية والاقتصادية متبوعة بإصلاح تدريجي للوضع القائم؛ وأخيراً وليس آخراً دمج الأقليات المختلفة داخل المجتمع.

إن تصور الدولة وتصنيف السلوك الأخلاقي في الثقافة السياسية لجمهورية ألمانيا الاتحادية يتضمن نقاط قوة ونقاط

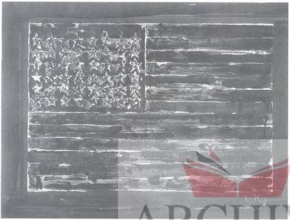
ضعف ومشكلات لها خصوصيتها أيضاً. تتمتع الدولة بشرعية أكبر بكثير من تلك الممنوحة لها في الولايات المتحدة فيما يتعلق بالتصدي لمشكلات المجتمعات الصناعية المتقدمة، إذ ثمة إجماع داخل المحيط السياسي على أنّه من واجب الدولة تحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي. لذلك تعنى الدولة بإعادة توزيع الدخل والممتلكات من خلال قوانين الضرائب، وترعى الفقراء والمشردين الذين لا سكن لهم وتعيد تدريب وتكوين العاطلين عن العمل. وتقدم العون للعائلات وتتيح الدراسة المجانية بالتعليم العالي وتدعم الفنون بسخاء وتقدم بشكل عام مجموعة كبيرة من سبل الدعم والعون. وبخلاف ما هو عليه الحال في الولايات المتحدة تحصل الدولة والأحزاب السياسية مباشرة على أكاليل الغار لتحقيقهم النمو الاقتصادي والسلام الاجتماعي.

من ناحية أخرى يحمل هذا الاتجاه الملازم للثقافة السياسية، أي اللجوء للدولة في القضايا الاجتماعية، خطرين كبيرين. أولاً أن تتخذ الدولة موقفاً مغروراً وصلفاً وتعمل على إخافة مواطنيها. ثانياً توجّه إلى الدولة انتقادات حادة عندما تكون الخدمات التي تقدمها غير كافية، وهناك خطر أن يُعرض الناس عن الدولة وأن يصابوا بـ «الإحباط السياسي». اتضح هذا العيب بصورة كبيرة مثلاً في الثمانينيات عندما استمر عجز الميزانية وارتفعت نسبة العاطلين عن العمل وقامت حكومة المستشار هلموت كول بتخفيض بعض المزايا الاجتماعية. وهناك عامل آخر عضد هذا الإحباط الناتج عن هذه السياسة، أي «الإحباط من الدولة ومن السياسة»، فنظراً إلى الدولة قد تولت مهمة معالجة كل السلبيات الاجتماعية الناتجة عن الرأسمالية المتقدمة، فقد تنامت البيروقراطية بشكل رهيب. صحيح أن الأجهزة البيروقراطية كانت قادرة على المساعدة بصورة فعالة في المشكلات الاجتماعية، لكنها ازدادت ابتعاداً عن المواطنين وتوقعاتهم. وعندما استمرت المشكلات الاجتماعية ومعدلات البطالة في الازدياد، وجه المواطنون نقمتهم إلى الدولة والأحزاب الكبيرة.

وهنا يكمن المأزق الكبير للتركيبة الألمانية وهنا يكمن تفردها. ورغم «الإحباط» الذي يظهر في فترات معينة، لا يوجد شك في المكانة المركزية للدولة ولا في الثقافة السياسية للأحزاب. لأن الدولة والأحزاب تمارس أهم دور في تأمين السلوك السياسي الأخلاقي والتضامن الاجتماعي، وبدرجة أقوى بكثير عنها في الولايات المتحدة، وهي تعد لذلك قوة مضادة لحسابات المنفعة الأنانية الخاصة في مجالي السياسة والاقتصاد.

لقد أظهرت تأملاتي للمحورين الرئيسيين، بشأن تصور الدولة وتصنيف السلوك السياسي، تأكيداً على اختلافات بين كلا الثقافتين السياسيتين. ومن خلال هذه الفروقات، ينشأ «سوء التفاهم المتجذر»، لكن هذا لا يخفي أن الثقافتين السياسيتين تقتربان من بعضهما على نحو خاص.

قبل نشأة جمهورية ألمانيا الاتحادية، كان السبب في الاحباط الكبير الذي عمَّ ألمانيا عادة يعود إلى أن الدولة لم تحقق الآمال الكبيرة المتوقعة منها. وعواقب ذلك كانت إما



Jasper Johns: "Flag, 1972/94". © VG Bildkunst, Bonn 2003

الانسحاب إلى الحياة الخاصة أو الاتجاه إلى اليمين أو اليسار المتطرف. في الستينيات والسبعينيات، حال الاستقرار الاقتصادي والسياسي من جهة، وتطور ثقافة سياسية ديمقراطية من جهة أخرى دون حدوث أية تطورات من هذا القبيل. ويتفق علماء الاجتماع الألمان والأمريكيون على أنه قد نشأ في ألمانيا عدد كبير من الجمعيات أو الاتحادات الوسيطة التي تشغل المساحة بين الدولة والأفراد المنعزلين وهو الأمر الذي يعتبره توكفيل Tocqueville ملمحاً رئيسياً للمجتمع الأمريكي ويرى أنّه لا غنى عنه لديمقراطية مستقرة.

ويقلل التطور من حدة الميل لـ «الاحباط السياسي». عندما يتم إدراك أن الأحزاب السياسية والأجهزة البيروقراطية والنخبة السياسية، بعيدة عن المواطن ومترفعة عنه، يزداد الاستعداد للمشاركة السياسية قوة ويصب ذلك في الحركات والاتحادات السياسية المحلية والإقليمية، أكثر مما يصب في اتجاهات اليمين أو اليسار المتطرف. ورغم أن الدافع المحرك لذلك في ألمانيا هو التحول الاقتصادي والهيكلي للمجتمع، بدلاً من التأثيرات الدينية في الولايات المتحدة، تقترب نسب

المشاركة السياسية في المنظمات المحلية والإقليمية من نسب المشاركة في نفس المنظمات بالولايات المتحدة.

إذا تأملنا هذا التحول على أساس الخلفية التي قدمنا لها أعلاه وفي ضوء خبرة ماكس فيبر بأن الموروثات الثقافية تظل باقية بشكل مؤثر رغم التغيير الهيكلي، فسنجد أنفسنا أمام مجموعة من الأسئلة. ما هي توجهات السلوك السائدة في هذه الاتحادات السياسية الجديدة؟ هل تطور مجال للمجتمع المدني تتغلغل فيه المثل والمعايير، وتصبح لذلك أساساً ملزماً للسلوك، على الأقل لحد معين، يشكل ثقافة سياسية، كانت ترى أن الدور الأكبر في الفعل السياسي الأخلاقي يقع على جمعيات أو اتحادات أهلية تعنى بالقيم والمثل العامة. وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الجماعات على المستوى العام، بألمانيا داخل نطاق واسع. هناك بعض الجماعات تتميز في الظاهر بمشاركة اجتماعية قوية وتوجه ذي أساس قيمي، وهناك جماعات أخرى تبين بوضوح أنها تقوم بتمثيل مصالحها، وهناك جماعات تخلط بين القيم والمصالح. من الواضح أن النظام العقيدي، أي البروتستانتية الزاهدة، الذي وهب الجماعات الوسيطة في الولايات المتحدة قيمها ومثلها، ليس هو القوة الوحيدة التي تؤثر في مثل هذا النوع من التطور.



Jasper Johns: "Flag, 1972/94". © VG Bildkunst, Bonn 2003

عاتق الدولة؟ هل جلبت التغيرات الهيكلية والمؤسسية والسكانية والاقتصادية والجيلية وبعض الأحداث التاريخية في ألمانيا معها قيماً عامة تتيح وجود صيغة مشابهة لصيغة التضامن الاجتماعي في الولايات المتحدة؟

يعلمنا ماكس فيبر أن المعايير والمثل العامة لم تنشأ في الماضي فقط من خلال مثل هذا التحول. تحت أية ظروف انتقل السلوك النفعي المحض المميز للمجتمع الصناعي الحديث ومجاليه السياسي والاقتصادي، إلى النطاق الاجتماعي وتشرّب قيم العدالة الاجتماعية والإنصاف والطمأنينة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، بحيث أصبح من الممكن تشكيل مجتمع مدني قوي على هذا الأساس؟ إن الجماعات السياسية والاقتصادية التي تتصرف على أساس من التفكير النفعي والحسابات الموضوعية، تعد أقرب ما تكون إلى جماعات للمصالح الفردية أكثر من كونها

ورغم أن «أمركة» الثقافة السياسية الألمانية تزيد تدريجياً من تقارب الثقافتين، ما تزال هناك فروق مهمة. ويشهد بذلك سوء التفاهم المتكرر الملحوظ على هذا الجانب من الأطلنطي أو على الجانب الآخر. وهنا لا يسعنا إلا أن نورد بعض الأمثلة للتوضيح. غالباً ما لا يتبين مثلاً للأمريكيين والألمان أن فهمهم لدور الدولة وللمسؤولية الشخصية مختلف. ويؤدي ذلك إلى تصورات لا تراعي سياق الحديث إلا قليلاً. فمثلاً هناك تصور منتشر في ألمانيا بأن الضمان الاجتماعي في الولايات المتحدة يعد مجرد صيغة متخلفة من فكرة دولة الرعاية الاجتماعية في ألمانيا، ولاينظر إلى هذا النظام على أنه تركيبة مستقلة ومتجذرة ترفض النظام الألماني رفضاً قاطعاً. وعلى النقيض من ذلك تعكس رؤية الأمريكيين لدولة الرعاية الاجتماعية الألمانية تركيبة خاصة ذات عوامل تاريخية وثقافة، تبدو

الدولة الألمانية القوية بصلاحياتها المتنوعة مهددة لحرية الفرد. وفي حين يرى الأمريكيون أن «الدولة القوية» غير ضرورية ومهددة، يعتقد الألمان أن الأمريكيين يبالغون بسذاجة في الإعلاء من قيمة المسؤولية الذاتية ويقللون من شأن الفوضى الاجتماعية التي يمكن أن تحدثها الرأسمالية. هذه الرؤية تغفل مع ذلك التراث الديني الأمريكي الذي يُعلي من شأن المسؤولية الذاتية ويقلل من التشكك في الرأسمالية.

إن التشكك الألماني تجاه الثقافة السياسية الأمريكية، يزداد قوة من خلال القناعة بأن المجتمع الأمريكي «مجتمع جماهيري» يعد فيه الأفراد ذرات لها عوالمها الخاصة المستقلة، حيث يتخذ كل فرد طريقه بمعزل عن الآخرين ولا يوجد به تضامن اجتماعي. لكن هذا الاستنتاج يرجع إلى أن الرؤية الألمانية التي تستند إلى الدولة والأحزاب السياسية كمرجعية للسلوك السياسي، تسحب هذه على الواقع الأمريكي وتتجاهل بذلك خصوصية التضامن الاجتماعي الأمريكي. فالأمريكيون يرون أن السلوك السياسي الأخلاقي يجب أن يكون داخل مجال اجتماعي مدني غير واضح ومحدد المعالم وتتزاحم فيه الجمعيات الأهلية. إضافة إلى أن هذا الحكم لا يراعي الصيغة الأمريكية للاندماج الاجتماعي والتي أضعفت من المسؤولية الذاتية و«البطولة الفردية». في الواقع أدت الأهمية المحورية للمجال الاجتماعي المدني، من جوانب شتى، إلى إحداث نوع من الضغط القوي من أجل التوافق. إن التصنيف المتعدد للسلوك الأخلاقي والصيغ المفاهيمية المختلفة عن دور الدولة أدت إلى المزيد من سوء الفهم. حيث يرى الألمان في استناد الأمريكيين دائماً إلى القيم والمثل العامة في تبريرهم لسلوكياتهم نوعاً من الرياء والخداع، ويتهمونهم دائماً بالقول إن الدوافع الحقيقية وراء ذلك مجرد دوافع ذات طبيعة سياسية أو اقتصادية. وعلى العكس يرى الناس في الولايات المتحدة ميل الألمان إلى جعل المصالح السياسية والاقتصادية دافعاً أساسياً للمشاركة السياسية خارج الإطار الحزبي السياسي، على أنه شيء محسوب وساخر، حيث يرون أن الألمان يميلون، أغلب الظن، إلى المثل العامة. وأثناء ذلك يتغاضى الأمريكيون عن حجم السلوك السياسي وحجم التضامن الاجتماعي عموماً من خلال اقتصاد السوق الاجتماعي والتشريعات العديدة التي وضعت الدولة الاجتماعية أسسها.

ويتضح أيضاً نقل التصورات المعهودة من بلدك إلى أي بلد آخر أيضاً من خلال نقطة جديدة، فبينما يفسر الأمريكيون فضيحتي «ووترغيت» و«مونيكا غيت» على أنها فقدان كبير لثقة الجمهور، يفسر الألمان هذه الفضائح في ضوء المصالح السياسية للأحزاب السياسية وينتقدون التفسير الأمريكي لسذاجته. وطبعاً لأن الصحف الألمانية على علم بأن الأحزاب في الولايات المتحدة لها دور محدود لا يقارن بدور الأحزاب في ألمانيا، تركز هذه الصحافة في الانتخابات الأمريكية، وبشكل منتظم، فقط على الاهتمامات الاقتصادية للمرشحين وخططهم الاستراتيجية وتهمل تماماً الدور الذي تلعبه المثل العامة. ومن ناحية أخرى لا تبدي الصحافة الأمريكية تفهماً للدور المهم الذي تلعبه الأحزاب السياسية أثناء الانتخابات في ألمانيا.

إن استخدام نماذج التصورات النابعة من الثقافة السياسية الوطنية، على بلد آخر، حتى في موضوعات السياسة الخارجية، يؤدي من جديد إلى سوء تفاهم بين الألمان والأمريكيين. أحياناً يصل الأمر إلى الاقتصار على التكهن بالدوافع. في ألمانيا تُقابل تلك المثالية الأمريكية التي ينشرها الأمريكيون بوعي والمتغلغلة في التصور الأمريكي عن المثل العامة والتي لا تنفصل عن السياسة الخارجية الأمريكية، حتى لو كانت عادة مغطاة بأهداف أخرى، والتي تعلن عن نفسها في حملات حقوق الإنسان، بعدم ثقة. عادةً ما يرى الألمان هذه المثالية على أنها عرض مرائي لا يمكن من خلاله إبهار أحد سوى الجمهور الأمريكي.

ومن ناحية أخرى ونظراً إلى تشديد الألمان على المصالح القومية والسياسية، هناك انطباع لدى الأمريكيين بأن السياسة الخارجية الألمانية تفتقد إلى البعد الأخلاقي، وأنها تقوم بدلاً من ذلك باتباع إرث قديم لم يعد صالحاً في الوقت الحالي، أي سياسة الأمر الواقع. وسرعان ما نسقط من جديد في الكليشيهات المستهلكة. الأمريكيون أبرياء وسذج مثل الأطفال والألمان ساخرون وأوروبيون منهكون، فقدوا طاقاتهم ومثلهم الفتية.

أقل الأمثلة تبين ظهور سوء التفاهم بانتظام رغم أن السياسة الأمريكية والألمانية قد تقاربتا. الشيء الوحيد الأكيد هو أن أهم الفوارق في الثقافة السياسية للدولتين، لن تتلاشى نظراً إلى ارتباطها بتاريخ وثقافة كل دولة منهما، وحتى لو استمرت «أمركة» ألمانيا.

البروفيسور ستيفن كلبيرغ أستاذ مادة علم الاجتماع في جامعة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Merkur 617/618, Sept./Okt. 2000.

Arundhati Roy أروندati روي

كيف تسوق حرباً؟

غضبنا غير المحدود: عن تهمة معاداة أمريكا كإيديولوجية

تعتبر أروندati روي من أهم الأصوات الأدبية في شبه القارة الهندية. ولدت عام ١٩٦٠، ونالت روايتها «إله الأشياء الصغيرة» شهرة كبيرة في كل أرجاء العالم. روي اشتهرت أيضاً بمقالاتها السياسية التي تعبر عن غضب الأغلبية في منطقة الحزام النووي الهندي ـ الباكستاني تجاه سياسة الولايات المتحدة. وهي لا تني تهاجم العولمة وعواقبها في بلادها، ما جعلها صوتاً سوسيولوجياً معبراً عن قطاعات عريضة في العالم الثالث.

وجهت، في الأسابيع الماضية إلى الذين انتقدوا الحكومة الأمريكية، تهمة معاداة أمريكا. ويبدو أن هذا المصطلح بدأ يكتسي في الوقت الحاضر أبعاداً إيديولوجية. إن المؤسسة الأمريكية الحاكمة تستخدم عادة هذه التسمية للحط من قيمة منتقديها ووضع لافتة تصنيفية، ليست بالضرورة خاطئة، إنما هي غير دقيقة، على جباههم. على الشخص الذي يوصم بمعاداة أمريكا أن يتوقع الإدانة الفورية وضياع الحجج التي يسوقها بين صرخات الكبرياء الوطني الجريح. ماذا تعني معاداة أمريكا؟ ألاّ تحب الاستماع إلى موسيقى الجاز؟ أن تعادي حرية التعبير عن الرأي؟ ألاّ تكون مهووساً بتوني موريسون وجون أبدايك؟ هل تعني ألاّ تكُن إعجاباً بمئات الآلاف من الأمريكيين الذين تظاهروا ضد الأسلحة النووية، أو الآلاف من الممتنعين عن أداء الخدمة العسكرية الذين أجبروا حكومتهم على الانسحاب من فيتنام؟ أم كراهية كل الأمريكيين؟

إن هذا الخلط البارع بين الموسيقى الأمريكية والأدب الأمريكي، بين الطبيعة الساحرة للبلاد والمتع البسيطة للناس البسطاء من ناحية، وبين نقد السياسة الخارجية التي تنتهجها الحكومة الأمريكية من ناحية أخرى، لهو خلط منهجي مقصود وبالغ التأثير. إنه يُذكِّر بفرقة من جيش متقهقر تبحث عن ملجأ لها في مدينة مكتظة بالسكان، أملاً في أن يتراجع العدو عن قصف المدينة خوفاً من وقوع ضحايا من المدنيين.

سيغضب كثير من الأمريكيين إذا وضعناهم في سلة واحدة مع سياسة حكومتهم، لاسيما وأنه من بين المقالات، التي تناولت نفاق السياسة الأمريكية وتناقضاتها، كان ما كتبه الأمريكيون أنفسهم أكثرها تأملاً وسخريةً وحدةً وعمقاً. (في الهند أيضا سيشعر ملايين من الهنود بالخجل والإهانة إذا ساوى أحد بينهم وبين السياسة الفاشية للحكومة الحالية.) إن اتهام أحدهم بأنه معاد للولايات المتحدة إنما هو تعبير عن نقص في الخيال وعدم القدرة على رؤية العالم بطريقة مغايرة لما تنادي به الطغمة الحاكمة: من ليس طيباً فهو شرير. من ليس معنا فهو مع الإرهابيين.

لقد أخطأت أنا أيضاً في العام الماضي بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وانزلقت إلى السخرية من بلاغة الخطاب الأمريكي، معتبرةً إياه أحمق ومتعجرفاً. إلاّ أنه اتضح لي فيما بعد أن الصواب جانبني، وأن الأمر في حقيقته حملة بارعة للدعاية لحرب خطيرة وخاطئة.

كم من مرة سمعت وجهة النظر الشائعة التي تقول إنه لا يجوز توجيه النقد إلى هذه الحرب، لأن ذلك يعني مساندة الإرهاب. فجأة، وبعد أن فشل الأمريكان في تحقيق الهدف الأصلي للحرب، أي القبض على بن لادن، فإننا نسمعهم يتحدثون عن أهداف أخرى. الآن يقولون لنا إنهم شنوا الحرب لإسقاط نظام طالبان ولتحرير المرأة الأفغانية من البرقع. علينا أن نصدق إذن أن الجنود الأمريكيين منتشرون في أفغانستان لتنفيذ مهمة بأمر من الحركة النسوية. (هل تقودهم المهمة القادمة إلى السعودية، الحليف العسكري للولايات المتحدة؟) ثمة أنماط سلوكية اجتماعية سيئة إلى حد ما في الهند ضد المنبوذين وضد المسيحيين والمسلمين والنساء. أيضاً كما تلقى النساء والأقليات أسوأ معاملة في باكستان وبنغلاديش. فهل يبرر ذلك إلقاء القنابل على هذه البلدان؟

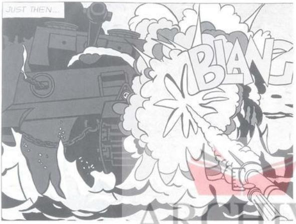
مازال إرهاب الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر يلاحق الناس أينما ذهبوا، لاسيما في الولايات المتحدة بطبيعة الحال. مازال الألم والغضب يحرقان القلوب. ومع ذلك يعلم جميع الذين فقدوا أقاربهم أن أي عمل انتقامي لن يخفف

آلامهم أو يعيد موتاهم إلى الحياة. لا تستطيع الحروب الثأر للموتى، لأن الحرب هي دوماً تدنيس وحشي لحرمة التذكّر. إن شن حرب جديدة (على العراق)، عبر تزييف مشاعر الحزن وتهيئتها للاستهلاك التلفزيوني في برامج تمولها وترعاها شركات مساحيق التنظيف والأحذية الرياضية، يعني إفساد الحزن. إنه يبين أن أعظم مشاعر البشر خصوصية يمكن أن تُنهب دونما اكتراث لتحقيق أغراض سياسية آنية.

تقول الحكومة الأمريكية إن صدام حسين مجرم حرب وطاغية لا يرحم. إنها بالفعل أوصاف صائبة للرجل الذي أمر بإلقاء القنابل على مئات من القرى في شمال العراق عام ١٩٨٨، وبذبح آلاف الأكراد هناك. إلاّ أننا نعلم أيضاً أن الحكومة الأمريكية قدمت لصدام منحة قدرها ٥٠٠ مليون دولار لشراء منتجات زراعية أمريكية. وفي العام التالي، وبعد إتمام عملية الإبادة الجماعية بنجاح، رفعت واشنطن معونتها إلى مليار دولار. بالإضافة إلى ذلك وردّت الإدارة الأمريكية لبغداد كميات من بكتيريا الجمرة الخبيثة «أنثراكس» ومروحيات ومواد يمكن استخدامها في تصنيع أسلحة كيميائية وبيولوجية. هذا يعني أن الحكومتين الأمريكية والبريطانية كانتا قبل سنوات من أقرب الحلفاء إلى نظام الرئيس صدام حسين. ماذا تغير منذئذ؟

في آب/ أغسطس ١٩٩٠ اجتاحت القوات العراقية الكويت. ولم تكن خطيئة صدام العمل الحربي في حد ذاته، بل إنه تصرف دون الرجوع إلى أحد. وحده هذا الاستعراض للقوة أخل بتوازن القوى في منطقة الخليج. وهكذا قرروا إزاحة صدام، كما يقرر المرء التخلص من حيوان أليف لم يعد ينال عطف أصحاب البيت. ومع ذلك فمازال صدام ممسكاً بزمام السلطة. والآن، وبعد مرور اثني عشر عاماً، يكتشف بوش الابن الخطاب العسكري الذي كان يزأر به أبوه، ويطالب بشن حرب هدفها تغيير النظام في العراق. ذات مرة وصف أندرو هـ.كارد الابن، رئيس الأركان في البيت الأبيض، الكيفية التي تعزز بها الحكومة الأمريكية في الخريف خططها لشن الحرب القادمة بهذه الكلمات: "لأسباب تسويقية لا يُطرح منتج جديد في الأسواق خلال شهر آب/ أغسطس." كلمة "منتج جديد" التي تستخدمها واشنطن لا تعني هذه المرة حالة الناس في الكويت، بل الادعاء بأن العراق يمتلك أسلحة الدمار الشامل. ولكن على المرء ألا ينخدع، هكذا كتب المستشار في وزارة الدفاع ريتشارد بيرل، «بالمواعظ الأخلاقية الجوفاء» التي يلوكها معسكر السلام، ويضيف بيرل أنه في حالة الضرورة ستخوض الولايات المتحدة حرباً وقائية.

لا شك أن التضارب هو سمة تقارير مفتشي الأسلحة حول الوضع في العراق. كثيرون أعلنوا أن أسلحة الدمار الشامل تم تدميرها، وأن العراق لا يستطيع تصنيع أسلحة جديدة. ولكن ما العمل إذا كان العراق يملك بالفعل قنبلة ذرية؟ هل يبرر ذلك حرباً وقائية؟ ولكن الولايات المتحدة تمتلك أكبر ترسانة نووية في العالم، وهي البلد الوحيد على ظهر هذا الكوكب الذي سبق له استخدام أسلحة نووية ضد شعب



Roy Lichtenstein: "Blang, 1962". © VG Bildkunst, Bonn 2003

مدني أعزل. فإذا كانت واشنطن تدعي لنفسها الحق في شن حرب وقائية على العراق، فإن من حق كل قوة نووية خوض حرب وقائية ضد قوة أخرى. عندئذ يمكن للهند أن تهاجم باكستان أو العكس.

منذ سنوات طويلة والولايات المتحدة تساهم بنجاح في الحيلولة دون نشوب حرب بين الهند وباكستان. هل يصعب على الأمريكان أن يتبعوا النصيحة التي يسدونها للآخرين؟ ومن يلقي هنا المواعظ الأخلاقية؟ من ينادي بالسلام ويشن الحروب في آن واحد؟ لقد خاضت الولايات المتحدة، وهي «أكثر الأمم مسالمة في العالم» على حد تعبير رئيسها بوش، خلال الخمسين عاماً الأخيرة عدة حروب ضد عدد من الدول؛ والحروب لا تُخاض أبداً بدافع من الإيثار ومحبة الغير، بل في الغالب من أجل السيطرة وتحقيق المصالح التجارية. في كتابه The Lexus and the Olive Tree كتب توم فريدمان يقول: "لن تعمل يد السوق الخفية دون قبضة خفية. بدون ماكدونال دوغلاس لن تنجح سلسلة ماكدونالدز. إن القبضة الخفية التي تتيح لشركات التقنية

المتقدمة في سيليكون فالي الازدهار في العالم كله دون عوائق تُدعى الجيش الأمريكي والقوات الجوية والبحرية." ربما كُتبت هذه الكلمات في لحظة شعور هائل بعدم الأمان، لكنها أدق وأوجز وصف قرأته عن طريقة عمل العولمة.

بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر والحرب على الإرهاب لم تعد اليد الخفية مختفية. إننا نرى الآن بوضوح كيف تحتاج أمريكا العالم الثالث وعلى وجهها ابتسامة شماتة. "المهمة التي لا تنتهي"، تحت هذا المسمى تخوض الولايات المتحدة حرباً بارعة هي العجلة الدافعة في عربة الإمبريالية الأمريكية التي لا تتوقف عن التوسع.



Roy Lichtenstein: "Fastest Gun, 1963". © VG Bildkunst, Bonn 2003

في اللغة الأوردية تعني كلمة «فائدة» الربح، أما «القاعدة» فإنها تعني كلمة الله أو القانون. بعض الهنود يعتبرون الحرب الدائرة على الإرهاب الآن حرباً بين القاعدة والفائدة. الكلمة ضد الربح. ويبدو في اللحظة الراهنة أن الفائدة هي المنتصرة.

لقد ارتفع إجمالي الدخل في العالم خلال السنوات العشر الأخيرة بنسبة ٢,٥ في المئة سنوياً، بينما ارتفع عدد الفقراء بنحو ١٠٠ مليون نسمة. من بين أكبر مائة مؤسسة اقتصادية في العالم هناك ٥١ شركة مملوكة من قبل أفراد لا دول. الطبقة العليا من سكان العالم لا يزيد عددها عن ١٪، لكن دخلها السنوي يوازي دخل ٥٧٪ من سكان العالم. وتحت مظلة الحرب على الإرهاب تزداد هذه الهوة اتساعاً؛ وفي الوقت الذي تسقط فيه القنابل على المدن يتم توقيع العقود التجارية، وبناء خطوط أنابيب البترول، ونهب الثروات المعدنية، وخصخصة قطاع المياه، وإضعاف الديمقراطيات. وبينما تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء تتزايد المشاغل أمام القبضة الخفية للسوق الحرة.

في البلدان النامية يتوقف نشاط الشركات المتعددة الجنسيات، الباحثة دوماً عن الربح، على تعاون أجهزة الدولة: الشرطة والقضاء، بل وحتى الجيش. تحتاج العولمة في البلدان الفقيرة إلى اتحاد دولي من الحكومات الفاسدة، ومن الأفضل أن تكون استبدادية حتى تستطيع تمرير الإصلاحات التي لا يستسيغها الشعب. تحتاج العولمة إلى صحافة تدعي أنها حرة ونزيهة، وإلى قضاء يبدو في الظاهر أنه يحكم بالعدل والقانون. إنها بحاجة إلى قنابل ذرية وجيوش، وقوانين هجرة صارمة، وشرطة حدود لا تسمح بالعولمة سوى لرؤوس الأموال والبضائع والخدمات وبراءات الاختراع، لكنها لا تسمح بحرية تنقل الناس، أو باحترام حقوق الإنسان، أو باتفاقيات منع الممارسات العنصرية، أو بحظر الأسلحة الكيميائية والنووية، أو بحماية المناخ، أو، والعياذ بالله، بمحكمة الجزاء الدولية.

بعد مرور حوالي عام على الإعلان رسمياً عن نهاية الحرب على الإرهاب في أفغانستان المدمرة يتزايد عدد الدول التي تقلص الحريات أو تلغيها كلية باسم الدفاع عنها. كل ثورة أو احتجاج يتم إخماده على الفور بتهمة «الإرهاب». الحرب تُخاض، وكما أشار وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد، من أجل أن يحافظ الأمريكيون على طريقة الحياة الأمريكية.

وإذا خبط الملكُ بقدميه غاضباً على الأرض فلابد أن ترتعد فرائص العبيد.

يصعب عليّ أن أقول هذه الكلمات، ولكن طريقة الحياة الأمريكية لا يمكن الحفاظ عليها، لأن هذا النمط من الحياة لا يتقبل أنماطاً أخرى بجانبه.

لحسن الحظ لا يمكن الاحتفاظ بالقوة إلى الأبد. في وقت ما ستكلف هذه الإمبراطورية نفسَها، كما فعلت إمبراطوريات سابقة، ما لا طاقة لها به، وستنهار. بل إن الصدوع الأولى بدأت بالفعل في الظهور. قلب الشركات الأمريكية العملاقة ينزف يوماً بعد يوم، بينما تُلقي الحرب على الإرهاب بشباكها إلى محيط أوسع وأوسع، والعالم الذي يحكمه حفنة من مديري البنوك ورؤساء مجالس المؤسسات، الذين لم يخترهم أحد، لا يمكن أن يستمر.

إن الشيوعية السوفيتية لم تفشل لأنها نظام سيئ في حد ذاته، بل لأنها ارتكبت خطأً قاتلاً عندما انتزع عدد قليل من الناس قدراً هائلاً من السلطة. وللسبب ذاته سوف تفشل الرأسمالية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين.

ترجمة: سمير جريس

المصدر: "Frankfurter Allgemeine", 2.10.2002

إلياس كانيتي Elias Canetti

وظيفة الكاتب

الكاتب، البلغاري المولد، إلياس كانيتي (١٩٠٥ - ١٩٩٤) كتب باللغة الألمانية. درس الكيمياء في الثلاثينات في جامعة فيينا. هاجر إلى لندن في عام ١٩٣٨. من أشهر أعماله «السيرة الذاتية»، التي تتألف من ثلاثة أجزاء. في عام ١٩٨١ حاز على جائزة نوبل للآداب.

تنتمي مفردة الكاتب إلى الكلمات الخائرة العزيمة، الكاسدة منذ زمن، التي كان المرء يتجنبها ويتستّر عليها، معرّضاً نفسه للسخرية إذا ما استخدمها، فبات يفرّغها حتى انكمشت ولم تعد تصلح للإنذار بفعل قبحها. ومع ذلك فكلّ من يقدم على هذا النشاط، الذي ما زال قائماً، يسمّي نفسه: شخص ما يكتب.

كان على المرء أن يفكّر في أن هذا مرتبط بالتخلّي عن مطلب مزيّف، وإيجاد مقاييس جديدة للتعامل بصرامة مع الذات، وتجنّب كلّ ما هو خاص يؤدي إلى النجاح غير الشريف. في الحقيقة حدث عكس ذلك من قبل أولئك الذين يهجمون على مفردة «كاتب» بلا رحمة ويطوّرون أساليب الإثارة بوعي ويصعّدونها. فالرأي التافه القائل بأن الأدب برمته أصبح ميتاً قد سُطّر بعبارات جنائزية مثيرة للشفقة وبمثابة بيان طُبع على ورق نفيس ونوقش باحتفاء وجدّية كما لو أن الأمر متعلّق بصرح فكري مركّب، بالغ الصعوبة. بالتأكيد أن هذه الحالة الغريبة سرعان ما غرقت في تفاهتها نفسها، لكن الآخرين أيضاً الذين لم يكونوا مجدبين على نحو كاف إلى درجة الإسفاف في بيان ما والذين يؤلفون كتباً لاذعة شديدة الألمعية ساهموا بدورهم وعلى عجل في إعلاء شأن صيغة «شخص ما يكتب» فأخذوا يفعلون ما كان يفعله الكتاب من قبل: أي بدلاً من الصمت صاروا يعيدون تأليف الكتاب ذاته من جديد. ومهما بدت لهم البشرية غير قابلة للإصلاح وتستحق الموت فإن ثمّة وظيفة لها لم تزل باقية: وهي أن تصفّق لهم. فمن لم يعد يشعر بالرغبة في ذلك ومن سئمَ من بنات أفكاره المجترة كان يُلعن مرّتين: مرّة بصفته إنساناً، وهذا بحدّ ذاته لا يعني الكثير، ومرّة أخرى لأنه يرفض الاعتراف بالإدمان اللانهائي على الاحتضار الذي يمارسه ذاك الذي يكتب باعتباره ذا قيمة.

إنكم ستفهمون بأنني، وبناءً على هذه الظواهر، لا أظهر إزاء من يطلقون على أنفسهم لقب كتّاب بكلّ غطرسة شكاً أقلّ من شكّي بأولئك الذين يمارسون الكتابة وحدها. إنني لا أرى فرقاً بينهم، فهم يشبهون بعضهم مثلما تشبه البيضةُ بيضةً أخرى، والاعتراف الذي اكتسبوه ذات مرّة يبدو لهم حقاً قانونياً مدوّناً.

إذ إن في الحقيقة ليس هناك من لا يشكّ اليوم في حقه بوصفه كاتباً شكاً جدّياً. ومن لا يرى حالة العالم الذي نحيا فيه يتعذر عليه أن يقول شيئاً عنه. فالخطر الذي يتهدده كان في السابق الشغل الشاغل للديانات ثم انتقل إلى المجال الدنيوي. وزواله أمر قد جُرّب أكثر من مرّة، وثمّة البعض، من غير الكتّاب، يرصد هذا الزوال ببرود، وهناك من يحصي فرصه المتاحة، جاعلاً منها مهنة تدر عليه ربحاً ضخماً على الدوام. منذ أن أوكلنا تنبؤاتنا إلى الآلات فقدت التنبؤات نفسها كلّ قيمة، وكلّما انقسمنا على أنفسنا، مفوضين أمرنا إلى جهات خالية من الحياة، ضعفت سيطرتنا على ما يحدث. لقد استحالت سيطرتنا المتنامية على كلّ شيء،

سواءً كان جامداً أم حيّاً، لاسيما على شـاكلتنا، إلى سلطة مضادة، نتحكم بها نحن تحكّماً ظاهريّاً فحسب. هناك المئات والآلاف من الأشـياء التي يمكن أن تقال حـول هذا الموضوع، لكنّ كلّ شيء معـروف، والأشدّ غرابة في ذلك هو أنه أصبح، وعلى نحو تفـصيليّ، خبراً صحفيّاً يوميّاً عاجلاً، أي أصـبح مبتذلاً تماماً. فلا تنتظروا منّي أن أعيد كلّ شيء من جديد، بل سأتعرّض اليوم إلى موضوع آخر، ينطوي على بعض التواضع.

الكاتب الحقيقي

لعلّ من المفيد أن نجـهد أنفسنا ونعمل الفكر فـيما إذا كان ثمّة شيء ضمن الوضـع الراهن للكرة الأرضية يستطيع من خلاله الكاتب، أو من يحـسب نفسه كاتباً حتّى الآن، أن يجعل نفـسه نافعاً. على أيّة حال، وعلى الرغم من نوائب الدهر التي عانت الكلمة تحت وطأتها فإنهـا بقيت تحتفظ بنوع من الأحقية. وليكن الأدب مثلما يشاء، إلا أنه، شأنه شأن البشـرية التي لم تزل متمسكة به، ليس ميتاً. فأين تكمن حياة ذاك الذي يمثّل الأدب اليوم، وما الذي باستطاعته أن يقدمه؟

كنت عثرت عن طريق الـصدفة على ملاحظة كاتب مـجهول، ولهذا السبب لا أودّ أن أذكـر اسمه، إذ لا أحد يعرفه. كانت تحـمل تاريخ ٢٣ آب/ أغسطس ١٩٣٩، أي أسبـوع واحد قبل اندلاع الحرب العـالمية الثانية، ورد فيها: "لقد انتهى كلّ شيء، ولو أنني كنت كاتباً حقّاً لتمكنت من منع وقوع الحرب."

واليوم يقـول المرء أي عبث هذا، إذ إنه يعرف ما الذي حـدث منذ ذلك التاريخ، أي تطاول! ما هذا الذي كان بمقدور فـرد واحد أن يمنعه، ولماذا الكاتب بالذات؟ وهل يمكن التفكير في حقّ بعـيد عن الواقع؟ وما الذي يميّز هذه العبارة عن الألفاظ الطنّانة لأولئك الذين قاموا بالحرب بوعي من خلال عباراتهم؟

لقد قرأت هذه الجملة بحيرة، ثم دوّنتها باضطراب متزايد. هنا فكّرت في أنني وجدت كلمة «كاتب» أشدّ ما يثير الامتعـاض في نفسي، فهذا مطلب يـقف على النقيض التام لما يمكن أن يفـعله الكاتب في أفضل الأحوال، ومثل على الادعاء الفارغ الذي يشوّه هذه المفردة ويحـمّلها قدراً من الريبة حالما يضرب أحد من أصحاب الحرفة على صدره، مفصحاً عن غاياته الكبرى.

لكن فيما بعد، خـلال الأيّام التي أعقبت ذلك، شعرت، متعجـباً، بأن هذه العبارة لا تريد الفكاك عنّي، وباتت تخطر في ذهني باستمرار، فصـرت استحضرها، وأفككها، فأنبذها، ثم أستـعيدها ثانية؛ إن الأمر متروك لي وحدي في أن أجـد لها معنى. فبدا غـريباً في مطلع جملته: "لقـد انتهى كلّ شيء."، وهو تعبير عن هزيمة شاملة نكـراء في زمن كان يأذن ببداية الانتصارات. ولأن كلّ شيء كان موقوفاً على هذه الانتصارات جهرت سلفاً بالنهاية اليائسـة، وعلى نحو كما لو أنها واقعة لا محالة. بيد أن الجملة الحقيقية القائلة: "لو أنني كنت كـاتباً حقّاً لتمكنت من مـنع وقوع الحرب" تتضمن بعـد تمعن دقيق عكس الادعاء الفارغ، وهو الاعتراف الذاتي بالعجز المطلق. لكنها تعبّر وبشكل أكثر عن الاعتراف بالمسؤولية، وبالتحديد هناك، وهذا مـا يدعو إلى الدهشـة، حين يكون من النادر أن يتكلم المرء عن المسـؤولية بالمفـهوم الشـائع للمفردة.

هنا تحدّث شخص ما كان يدرك، مثلما بدا، ما عناه بقوله، لأنه قاله في صمت، موجهاً الكلام إلى نفسه. إنه لم يثبّت مطلبه، إنما تخلّى عنه، وقام باتهام نفسه بفعل يأسه مما سيأتي، بدلاً من المسببين الحقيقيين الذين يعرفهم بدقة مـعرفة اكيدة، فلو أنه لم يكن يعـرفهم لفكّر فيما هو قادم بطريقـة مختلفة. وهكذا لم يبق ما يشكّل مصدراً للحيرة التي شعر بها المرء في البدء إلا أمراً واحداً: هو التصوّر الذي كان يحمله عمّا يجب أن يكون عليه الكاتب، وأنه كان يحسب نفسه كاتباً إلى لحظة نشوب الحرب عندما انهار أمامه كلّ شيء.

نعم إنه هذا الادعاء غير العـقلاني بالمسؤولية هو الذي أغراني وجعلني أمعن في التفكير. هنا يمكن القول أيضاً بأنه من خلال الكلمات المستخدمة دائماً بصـورة واعية، الكلمات الـمُساء استخدامها، وصل الوضع إلى الحدّ الذي باتت فـيه الحرب واقعة بشـكل محتّم. وإذا كانت الكلمات قـادرة على خلق هذه الأشياء كلّهـا، فلماذا لا تسـتطيع منع وقوع الحـرب؟ إذ ليس من العجب أن يتـوقع أحد مـا يجيـد التعـامل مع الكلمات أكثر من غيره أن تترك تأثيراً أكثر مما تتركه كلمات الآخر.

بهذا المعنى فإن الكاتب، وربما تسرعنا في العثور عليـه هنا، هو من ينتظر الكثير من الكلمات التي يتعامل معها عن طيب خاطر، ربما أكثـر من تعامله من الناس، مستسلماً لهما معاً، لـكن بثقة أكبر إزاء الكلمات التي يستلهـا من مواقـعها لكي يعـيدها إلى أماكنهـا من جديد بقـوّة وفعّالية كـبيرتين، بعـد أن يكون قد

استنطقها وتلمسها ومسّدها وخدشها ونقشها، بل إنّه يكون أكثر استعداداً أن يزحف أمامها بخشوع بعد كلّ وقاحاته الحميمة الطابع. حتّى لو بدا مذنباً في كلماته فهو مع ذلك مذنب بفعل الحبّ.

ثمّة أمر يختفي وراء هذه الأفعال جميعها، لا يدركه الكاتب دائماً، شيء غالباً ما يبدو ضعيفاً، غير أنه ينطوي أحياناً على نوع من العنف يمزقه تمزيقاً، ألا وهو الإرادة، أي إرادته في تحمّل مسؤوليته عن كلّ ما هو مصاغ صياغة مفهومة في مفردات، وتحمّل نتائج فشله.

فأي قيمة ينطوي عليها الأخذ بهذه المسؤولية الافتراضية من قبل الآخرين؟ ألا يفقدها طابعها اللاعقلاني أيّ قدرة على التأثير؟ أعتقد أن ما يفرضه الإنسان على نفسه يتم التعامل معه بأهمية، حتى من قبل الأشخاص المحدودي المعرفة، أكبر من التعامل مع الشيء الذي يفرض عليه قسراً وإكراهاً. ثم إنه ليس هناك من هو أشدّ قرباً من الأحداث وأعمق علاقة متشابكة معها أكثر ممن يشعر بالتقصير إزاءها. وإذا كانت كلمة كاتب تبدو منخورةً بالنسبة إلى الكثيرين فإن ذلك يعود إلى أنهم يقرنون بها تصوراً عن الشكل الظاهريّ وانعدام الجديّة، شيئاً ما ينسحب لكي لا يجعل الأمر بالنسبة إليه ثقيلاً. إن ربط السلوك المترفّع بما هو جماليّ، على اختلاف أطيافه ومشاربه، قبل الدخول مباشرة في حقبة مظلمة من تاريخ البشرية، قد لا يدركها هؤلاء بأنفسهم، إنما تجشّم عليهم، جعل من غير اللائق إبداء الاحترام؛ إن ثقتهم المزيفة وتجاهلهم للحقيقة التي يتفادونها بفعل الاحتقار ليس إلا، وإنكارهم لكلّ صلة بها، وابتعادهم النفسي عن كل ما يقع عملياً، إذ أن هذه الأمور لم يطلعوا عليها في لغتهم التي يستخدمونها، ويفهم من ذلك بأن العيون التي كانت ترى بنفاذ وصلابة تعرض برعب عن هذا الكمّ الهائل من العمى.

ومقابل ذلك هناك عبارات مثل تلك التي استهللت بها رؤيتي هذه. طالما هناك من يتحمل مسؤولية الكلمات، يوجد بالطبع اكثر من واحد، مدركاً الإخفاق التام بحساسية عالية؛ فإن لنا الحقّ في التمسّك بكلمة استخدمها دائماً مؤلفو الأعمال الرئيسية للبشرية، تلك الأعمال التي بدونها لا يمكن أن نمتلك الوعي بما تعنيه البشرية أصلاً. إزاء هذه الأعمال التي نحتاجها ليس أقلّ من حاجتنا لخبزنا اليومي، وإن بطريقة أخرى، والتي تسندنا، حتّى لو لم يبق لنا غيرها، وحتى لو نكون نعلم كيف أنها تسندنا، باحثين سدى في الوقت نفسه عمّا يضاهيها في عصرنا، لم يبق أمامنا سوى موقف واحد: وهو أن بمقدورنا، إذا ما أبدينا تشدداً أمام الزمن، وأمام أنفسنا بصورة خاصة، الوصول إلى نتيجة مفادها أن ليس هناك كتّاب اليومَ، بيد أننا نتمنى بعاطفة صادقة أن نحظى ببعض منهم. لعلّ هذا القول يوحي بالإيجاز ولا يتضمن أي قيمة إذا لم نحاول توضيح ما الذي يجب أن يتمتع به الكاتب لكي يستحق هذا الادعاء.

أودّ أن أقول هنا إن أوّل الأشياء وأهمها هو أن الكاتب حامي التحوّلات، حاميها بمعنيين مزدوجين، أولهما هو أنه يجعل الإرث الأدبي للإنسانية الغنيّ بالتحوّلات ملكاً له. وكم يبدو هذا الإرث غنياً، فذلك أمر نعرفه الآن فقط، لأن كتابات الثقافات القديمة فُكت رموزها كلّها تقريباً اليوم. إلى حدّ القرن التاسع عشر كان يمكن لأي شخص معنيّ بجوانب الإنسان الشديدة الأصالة والغموض، أي موهبة التحوّل، الاستناد إلى كتابين أساسين من الكتب القديمة، أحدهما متأخر وهو: كتاب المسوخ Metamorphoses لأوفيد Ovid، وهو تجميع منتظم لجميع التحوّلات الأسطورية «الراقية» المعروفة آنذاك، وثانيهما متقدم وهو الأوديسة التي تعالج على نحو خاص التحوّلات المليئة بالمخاطر لإنسان هو «عوليس» بالطبع. وتشكّل ذروتها عودةُ «عوليس» إلى وطنه بصفته متسوّلاً، وهو أذلّ ما يكمن تخيّله، وأشدّ التحوّلات كمالاً، وقد نجح فيها نجاحاً لم يستطع الوصول إليه أيّ شاعر من بعده، ناهيك عن تجاوزه .ومن المثير للسخرية ربما أن نسهب في الحديث عن تأثير هذين الكتابين على الثقافة الأوربيّة الحديثة، قبل عصر التنوير، ولاسيما من بعده. فلدى أريوستو Ariosto مثلما الحال لدى شكسبير وعدد لا يحصى من الكتّاب الآخرين تظهر مسوخ أوفيد بارزة؛ ومن الخطأ تماماً الاعتقاد بأن تأثيرها على الحداثة قد اضمحل. لكنّ عوليس مازال يصادفنا إلى يومنا هذا: إنه أوّل شخص في الأدب العالمي يدخل في المخزون الرئيسي لهذا الأدب، ومن الصعب تعداد خمسة أو ستة أشخاص آخرين يتمتعون بقوّة تأثير مشابهة.

أثر جلجامش

إن أوّل أثرٍ أدبي كان موجوداً دائماً بالنسبة إلينا هو الأوّل حقاً، لكنه ليس الأقدم، لأن هناك ما هو أقدم منه قد أفصح عن وجوده؛ إذ لم تمض مائة عام على اكتشاف ملحمة جلجامش العراقية القديمة وإدراك أهميتها.

تبدأ هذه الملحمة بتـحوّل الإنسان الطبيعي إنكيدو، الذي كان يعيش مع الحـيوانات في الغابات، إلى إنسان مدينيّ ـ ثقافيّ، وهذا مـوضوع يمسّنا اليوم مباشـرة، لأننا اطلعنا وبشكل مجسّد ودقيق على حـياة الأطفال الذين عاشـوا بين الذئاب. ثم تتـخذ الملحـمـة منحى الصـراع الرهيب مع الموت إثر وفـاة إنكيدو رفـيق جلجامش، الصراع الوحيد الذي لا يُخلي سبيل الإنسـان الحديث وطعمُ مرارة الخداع الذاتي عالق في فمه.

هنا يجب أن أعرض نفـسي شاهداً على واقعة غـير جديرة بالتصـديق إلى حدّ ما: لا يوجد هناك أيّ عمل أدبي، وأعني ذلك بالحرف الواحد، حدد حياتي تحديداً حاسـماً مثلما فعلت هذه الملحمة ذات الأربعة آلاف عام، والتي لم يعرفها أحد حتى قبل قرن من الزمان. لقد تعرّفت عليها وأنا في السابعة عشرة من عمري، ومنذ ذلك الوقت لم تتـخل عنّي ، فكنت أرجع إليـها كمـا لو أنني كنت أرجع إلى الكتاب المـقدّس، وقد ملأتني بالرغـبة في انتظار المجهول أمـامنا، فضلاً عن تأثيرها الـنوعيّ المتميّز. فمن المستحيـل بالنسبـة إلي أن أنظر إلى دليل الأشيـاء الموروثة التي نستفيد منها كما نستفيد من الغذاء باعتباره أمراً منتهياً، فحتّى لو تاكد بأن ليس هناك أعمال خطيّة مثبتـة ذات أهمية ستأتي، فثمة مخزون هائل من التراث الشفهي الذي تتناقله الشعوب الطبيعية، وفيه مـن التحوّلات ما لا ينتـهي، وهذا ما يعنينا الآن. فيمكن للمرء أن يقضي حـياته لاستيـعاب هذه التحوّلات وتحـسسها، وستكون هذه ليست حيـاةً سيئة. قبائل لا يتعدى قـوامها أحياناً بضع مئات من الأفراد تركت لنا ثروةً نحن لا نستحقها بالتأكيد، لأننا نحن من أذنب في انقراضهم، أو أنهم يتعرضون للانقراض أمام أعـيننا التي بالكاد تبصر شيـئاً. لقد حـافظوا على تجاربهم الأسطورية إلى النهـاية، والعجيب في الأمـر هو أن ليس هناك من ملأ قلوبنا أملاً ونفعنا مثلما فعلت الأشعار القديمة غير القابلة للمـقـارنة والتي قـالها أناس طـاردناهم نحن وعـاملناهم بغبن وسلبناهم حتى هلكوا بمرارة وبؤس. أولئك الذين كنّا نكنّ لهم الاحتقـار بسبب ثقافـتهم المادية المتواضعـة، فأبدناهم دون تردد وبلا رحمة قد خلّفوا لنا إرثاً فكرياً لا ينضب. وسيعجز المرء عن تقديم الشكر والعرفان للعلم إذا ما استطاع إنقاذ هذا الإرث، ثم إن مهمة الحفاظ عليه وانبعاثه من أجل حياتنا تقع على عاتق الكتّاب.

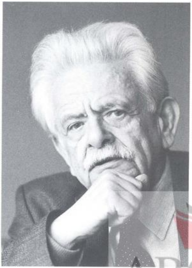


Photo: Isolde Ohlbaum

إلياس كانيتي

كنت قد وصفتهم بحماة التحوّلات، وهم فعلاً هكذا، لكن أيضاً بمعنى آخر. ففي عالم قائم على الإنجاز والتخصص وحدهما، لا يرى إلا الأطراف التي يسعى إليها المرء بأفق محـدود مستقيم، مسخّراً قوته كلّها لبلوغ أطراف العزلة الباردة، غير أنه يطمس ويتنكّر لما هو ملقى جانباً، للكثير المضاعف، الأصيل الذي لا يعرّض نفسه مسـاعداً لبلوغ الأطرف؛ في عالم يحرّم التحوّل أكثر فأكـثر، لأنه يتعارض مع الإنتاج الملبّي لجميع الرغبات. عالم يضاعف من وسائل تدميـره الذاتي بلا واعز، وينزع في الوقت نفسه إلى الاختناق بما هو موجود من النوعيات البـشرية المكتسبة قديماً والمتعارضة معه، في عـالم كهذا الذي يمكن وصفه بأنه من أكثر الـعوالم غروراً وعمى، يتراءى بـأن من الضروري بشكل حاسم أن يكون هناك من يتمـتع بموهبة التحوّل هذه ويمارسها على الرغم من كلّ ذلك.

المهمة الحقيقية للكُتّاب

هذه هي المهمّة الحقيقية للكتّاب حـسبما أعتقد. وعليهم أن يجعلوا المنافذ مفتوحة بين الناس بفضل الموهبة التي كانت ذات طابع عمومي، ومـحكوم عليها الآن بالضمور، لكن يجب أن يتمـسكوا بها بكلّ السبل. يجب أن يكونوا قادرين على أن يصبـحوا أيّ أحد، بما فيه الفرد الصغيـر والساذج والعاجز. يجب أن لا تقرّر رغـبتهم في التعـرّف على تجربة الآخرين داخلياً من قـبل المصالح والأغراض القـائمة عليها حـياتنا العاديّة، الرسمية إن شئنا القول، بل يجب أن تكون طليـقة حرّة من النيّة في النجاح ونيل الاعتراف، إنها الولع بحدّ ذاته، نعم الولع بالتـحوّل. لعلّ الأمر يحـتاج دوماً إلى أذن مـفتوحـة، لكنّ ذلك وحده ليس

بكاف، لأن أغلب الناس لم يعودوا نوعاً ما قادرين على الكلام، فيعبرون عن أنفسهم في الصحف ووسائل الإعلام بعبارات حسنة الصياغة، مرددين الشيء نفسه دون أن يكونوا هم أنفسهم شيئاً واحداً.
وعبر التحوّل وحده بالمعنى المتطرّف الذي تستخدم فيه المفردة يصبح ممكناً تلمّس الإنسان الذي يقف خلف كلماته، فالاستمرارية الحقيقية لما هو حيّ لا يمكن الإحاطة بها إلا عبر هذا الأسلوب. إنها عملية غامضة لم تُحلل بعد طبيعتها، إلا أنها تشكّل المدخل الحقيقي الوحيد للناس الآخرين. لقد حاول المرء تعريف هذه العملية بطرق مختلفة، فتم الحديث عن الانفعال والتعاطف مع الآخر أو التقمّص العاطفي، لكنني أفضّل كلمة «التحوّل» الدقيقة المعنى، وذلك لأسباب لا أستطيع عرضها الآن. وبغضّ النظر عن التسمية فإن الأمر يتعلّق بشيء حقيقيّ نفيس جداً، من الصعب أن يشكّ به أحد. إنني أرى المهنة الأصيلة للكاتب في تمرينه المتواصل وفي تجربته الضرورية مع بشر من جميع الأنماط، لاسيما، وقبل كلّ شيء، مع أولئك الذين نادراً ما يلتفت إليهم أحد. إنني أرى مهنة الكاتب في هذه الطريقة القلقة التي لم يحطمها أيّ نظام أو يشلها. من الممكن، بل من المحتمل بأن جزءاً واحداً من التجربة ينتقل إلى عمله الأدبيّ. أمّا كيف يقيّم المرء ذلك، فذلك متروك مرّة أخرى إلى عالم الإنجازات والأطراف، الذي لا يعنينا أمره في الوقت الراهن، لأننا مشغولون بما سيكون عليه الكاتب، إن وجد، وليس بما سيخلّفه.
عندما أحجم هنا كليّاً عن الحديث حول ما يعدّ نجاحاً، بل أنظر إليه بريبة حتّى، فإن ذلك يرتبط بخطر يعرفه كلّ إنسان بنفسه. التطلع إلى النجاح، والنجاح ذاته، ينطويان على تأثير تضييقي. إن من يعي هدفه يشعر بكلّ ما لا يخدم الوصول إليه باعتباره عبثاً. فيتحرر منه لكي يزداد خفّةً، غير مهتم به، بيد أن ما يلقي به جانباً ربما يكون أفضل مما يعثر عليه؛ المهم بالنسبة إليه هو النقطة التي يصل إليها، قافزاً إلى الأعلى من نقطة إلى نقطة، ويقيس بالأمتار. الموقع بالنسبة كلّ شيء، فهو معيّن من الخارج، ولم يخلقه بنفسه ولم يسهم في تكوينه. إنه يلمحه فيسعى إليه، ومهما كان هذا الجهد مفيداً وضرورياً في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، إلا فأنه سيكون مدمّراً بالنسبة إلى الكاتب الذي نريد أن نراه نحن.
على هذا الكاتب أن يخلق باستمرار مكاناً في داخله قبل كلّ شيء، مكاناً لعلم لا يظفر به بغية تحقيق أغراض مجزية، بل للناس الذين يتعرّف عليهم أثناء تحوّله فيستوعبهم. ومادام الأمر متعلّقاً بالعلم فإنه يستطيع الحصول عليه فقط من خلال العمليات النزيهة القويمة التي تشكّل البناء الداخلي لكلّ فرع من فروع العلم. ولا يرشده إلى اختيار فروع المعرفة الشديدة التباعد عن بعضها الأخذُ بقاعدة واعية، إنما الجوع الذي لا يدرى كنهه. وبما أنه يفتح نفسه كذلك للناس المختلفي الأطياف ويفهمهم بالطريقة القديمة ما قبل العلمية، أي طريقة التحوّل، لأنه يعيش حركة داخلية متواصلة، لا يجوز له أن يُضعفها أو ينهيها، فهو لا يجمّع الناس، ولا يلقي بهم إلى الجانب بصورة منتظمة، إنما يلتقي بهم فحسب ويستوعبهم أحياءً، وبما أنه يتلقى منهم صدمات عنيفة فإن من الجائز تماماً أن يكون التوجه المفاجئ إلى فرع جديد من فروع المعرفة محدداً أيضاً من قبل تلك اللقاءات.
إنني مدرك بأن غرابة هذا المطلب سوف لا تثير سوى الاعتراض، ويشي هذا الكلام كما لو أن الكاتب مشغول بفوضى من المحتويات المتناقضة المتصارعة، ثم إن اعتراضاً وجيهاً جداً كهذا لم أكن استطيع ردّه إلى حين.
إن الكاتب سيكون أقرب الناس إلى العالم إذا ما حمل الفوضى في داخله، غير أنه، ونحن ننطلق من ذلك، يتحمّل المسؤولية إزاء هذه الفوضى. إنه لا يرضى بها ولم يكن مرتاحاً لها، ولا يتخيّل نفسه عظيماً لأنه يحتفظ بمكان لمتّسع من التناقض والانفلات، إنما يكره الفوضى ولم يقطع الأمل في التغلّب عليها من أجل الآخرين ومن أجل نفسه أيضاً.
لكي يقول شيئاً ذا قيمة عن العالم فعليه أن لا ينحّيه جانباً أو يتفاداه. وبما أن العالم عبارة عن فوضى، على الرغم من جميع الخطط والمقاصد فهو أكثر فوضى مما كان عليه في السابق؛ لأنه يتحرّك بسرعة متزايدة نحو دماره الذاتي، هكذا، وليس على غرار حذف المحظور لكي يقدّم للقارئ نظيفاً مهذباً ناعماً، فعلى الكاتب أن يحمل العالم، لكن لا يجوز له أن يستسلم للفوضى، بل عليه التعارض معها ومقاومتها بعنفوان أمله.
فما الذي يمكن أن يعنيه هذا الأمل، ولماذا هو ذو قيمة فقط عندما يتغذّى من التحوّلات التي يكتسبها الكاتب بالانفعالات التي تولدها قراءاته الآنية ثم يقدمها بصراحة لمحيطه الاجتماعي الراهن؟
هناك إذن قوّة الشخصيات المتمكنة منه والتي لا تريد إخلاء المكان الذي شغلته في أعماقه، فهي تتفاعل من خلاله كما لو أنه مكوّن منها. إنها أغلبيته المنطوقة الواعية، وبما أنها تعيش في داخله فهي تمثّل مقاومته

للموت. ومن جملة السمات التي تتحلّى بها الأساطير المتواترة شفاهاً هي أن البعض منها لابد أن يتصارع مع نفسه. فحيويتها تضاهي حزمها، ومن معطياتها هي أنها لا تتغير. فقط في بعض الحالات المنفردة يمكن العثور على ما يشكّل هذه الحيوية، وربما نادراً مـا تساءل المرء لماذا يتوجب عليها أن تتناقل. إن من السهل وصف ما الذي سيحدث للمرء الذي يواجه واحـدةً منها للمرّة الأولى. أعتقد أنكم لا تـتوقعون منّي أن أقدم لكم اليوم وصفاً شاملاً، بدونه سيكون الموضوع بلا قيمة. أودّ أن أشير فقط إلى قضية واحدة: وهي الشعور بالثـقة والتأكيد القاطع، هكذا كـان الأمر، ولابد أن يكون على تلك الشاكلة. وبغض النظر عمّا يلمسه المرء في الأسطورة، حتّى لو بدت هذه الأسطورة غـير جديرة بالتصديق ضمن سيـاق آخر، ستبقى مترفعة عن كلّ شكّ إليها، فثمّة فقط شخص متفرّد غير قابل للتزييف.

لقد أساء المرء استخدام هذا الخزين الاحتياطي من الثـقة الذي وصل الكثير منه حتّى إلينا نحن، معتبراً إيّاه إعارات غريـبة شاذة. نحن نعرف مـعرفة جـيّدة سوء الاستخـدام السيّاسي الذي مورس مع الأسـاطير، فحرّفت وخُفِّفت وشُوّهـت، فمن طبيعة هذه الإعارات الضئـيلة القيمة أن تدوم بضعة أعـوام ثمّ تنفجر. هناك إعارات من النوع المختلف تماماً أقـدم عليها العلم، سأذكر منها فقط مـثلاً صارخاً: كيفما يفكّر المرء في المحتوى الحـقيقي للتحليل النفسي فـإن جزءاً كبيراً من قوّتـه مستمدّ من مفـردة «أوديب»، حتّى النقد الرصين الموجه إليه، والذي أبتدأ منذ فترة، يحاول أن يتعرّض له من خلال هذه المفردة.

ويفسّر سـوء الاستخـدام المختلف الأنواع الذي مورس مع الأسـاطير قضـية الإعراض عنهـا التي تميّز بها عصرنا. إن المرء يشعر بها باعـتبارها أكاذيب، لأنه لا يعرف سوى الإعارات المأخـوذة منها، فيلقى بها مع الإعارات جانبـاً، لأن ما تعرضه من تحوّلات يبـدو مجرد شيء غير جـدير بالتصديق. ولا يدرك المرء من معجزاتها إلا تلك التي تكشّفت حقيقتها عـبر الاختلاقات، غير ملتفت إلى أننا ندين إلى النماذج الأصلية للأساطير التي خلقت هذه المعجزات واحدةً بعد الأخرى.

إلى جانب كلّ هذه المحتويات الاستثنائية النوعية التي تشكّل خـصوصية الأساطير هناك سمة التحوّل الذي يمارَس ضمن إطارها. فعبر هذا التحوّل بالذات خلق الإنسان نفسه، ومن خلاله صار يتبنّى العالمَ ويساهم فيه، وهو مدين بسلطته للتحوّل. وعلينا أن نقرّ بأنه مدين له بما هو أفضل من ذلك، إنه مدين له برحمته.

إنني لا أتردد هنا في اسـتعمـال مفردة تبـدو في نظر المفكرين غـير موضوعـية: لأنها نفـيت إلى مناطق الديانات، وهذا أيضاً يتعلّق بموضوع التخصص، فصارت تدار هناك ويرد ذكرها. إلا أنها كانت تُبعد عن القرارات النـزيهة المتعلقة بحياتنا اليومية المهيمن عليها تقنياً شيئاً فشيئاً.

لقد قلت إن من يشعر بالمسؤولية هو وحده يمكن أن يكون كاتباً، مع أنه ربما يفعل أقلّ مما يفعله الآخرون في الذود عنها بأعمال فردية. إنها مسؤولية من أجل الحياة التي تدمّر نفسها، وعلى المرء أن لا يخجل من القول بأن هذه المسؤوليـة تتغذّى من الرحمة؛ والمـناداة بالرحمة باعتبـارها شعوراً عامـاً غير محدد سـتكون عديمة القيمـة، إنما هي تتطلب التحوّل الملموس من كلّ فرد مـوجود ويعيش. وبالأسطورة والآداب الموروثة يتعلّم الفرد التحوّل ويمارسه، وسـيكون هذا التحوّل عدماً إذا لم يطبّقه بلا انقطاع على بيئته الاجـتماعية. فالحياة الغنية التنوّع السارية فيه والتي تبقى منفصلة حسّيّاً في جميع أشكال تجلّياتها، لا تتلاطم في أعماقه على هيئة مصطلح مجرّد، لكنها تمنحه القدرة على مواجهة الموت، فيستحيل حينئذ إلى شيء ذي طابع عام.

ليست مهـمة الكاتب أن يسلّم البشرية إلى الهـلاك، فهو الذي لا ينغلق نفسـه أمام أحد سيـتعـرّف بفزع على السلطة المتنامية للموت من خلال الكثيرين. وحتّى لو بدا ذلك للجميع عملاً مغامراً وبلا طائل فإنه سيظلّ يهزّ أركان الموت، لا يستسلم أبداً ولا تحت أيّ ظرف من الظروف. إن كبـرياءه هي التي ستجعله يتـصدّى لرسل العدم المتكاثرين على الدوام في الأدب، ويقارعهم بوسائل أخرى غيـر وسائلهم؛ سيعيش حسب قانون، هو قانونه نفسـه، لكنه لم يصغ له وحده، قانون يقول: "إن على المرء أن لا يدفع أحـداً إلى العدم حتى لو أراده هذا عن طيب خاطر، وعليه أن لا يبحث عن العدم إلا لكي يعثر على طريق الخلاص منه حتّى يرسم الطريق للآخرين. إن على المرء أن يصبر عـلى الحزن واليأس، لكي يتعلم كيف يستطيع إنقـاذ الآخرين منهما، لكن ليس بمعنى احتقار السعادة التي تستحقها المخلوقات، حتّى لو شوّه بعضها البعض ومزّقه تمزيقاً."

ترجمة: حسين الموزاني

المصدر: Das Gewissen der Worte. © Hanser Verlag, München 1976

Mona Yahia منى يحيى

نصب الحريـة

فصل من رواية الكاتبة العراقية اليهودية الأصل منى يحيى. فيه شرح لمعاني ودلالات جدارية الفنان العراقي جواد سليم «نصب الحرية». كما نقدم في الصفحة ٧٢ من هذا العدد قراءة نقدية لهذه الرواية.

ـ إلى دائرة الجوازات، من فضلك، قال أبي لسائق التاكسي.

ـ أنا لا أكاد أصدق ذلك! همست في أذن شولي، وأنا أجلس بينه وبين أمي على المقعد الخلفي.

ـ لا يزال كل شيء موضع شك، رد بنبرة جافة، وبصوت عالٍ، يمكن أن يسمعه الكل.

أدارت أمي رأسها، وحين لاحظ نظرتها، عضت على شفتها العليا، تريد بذلك أن تنوه، بأنه يتصرف بتهور، وهي تومئ برأسها باتجاه السائق.

ـ كيف؟ ما الأمر؟ ما الذي قلته؟ رد بتجهم وهو يشيح بنظراته.

مررنا بشارع السعدون، الطريق الأقصر والأكثر راحة للوصول إلى المدينة. يتطلع شولي بذهول إلى المشاهد التي تتابع أمام ناظريه عبر النافذة. لا غرابة، إذا أخذنا بعين الاعتبار، أنه نادراً ما غادر الدار خلال الأشهر الستة منذ إطلاق سراحه. حين مررنا بـ «أبو يونان»، محل الهامبورغر الجديد، صاح أخي مأخوذاً. لكنه لم يكن في السابق سوى كشك! هتف وهو يعبر عن دهشته، بصوت عالٍ، بالبُوفيه البيضاء الطويلة واللوحة الزرقاء الضخمة المتدلية فوقها.

وكان الهامبورغر ألذ طعماً، قال السائق معلقاً. بيد أنه سرعان ما تحول اهتمام شولي إلى البدعة التالية، مكتبة Mackenzie، التي تعرض كتباً باللغة الانكليزية، والواقعة عند التقاطع، قد ابتيعت لمالك آخر وأصبحت تعرف الآن بمكتبة ماجد. بعد مسافة قصيرة من اجتياز السائق لجامع الشهيد أخذ يبطئ في السرعة، قام برفع زجاج النافذة، وضرب على نفير العربة، وهو يلعن أعمال ترميم الشوارع التي لا تنتهي والغبار الذي علينا أن نستنشقه إلى الشمال من ذلك ما زال يعرض في سينما النصر فيلم «أبي فوق الشجرة». إنه أول فيلم مصري يطغي عليه موضوع التحليل النفسي. ستسرنا مشاهدته أنا وسلمى. ما أن اقتربنا من الباب الشرقي، حتى شعرت باضطراب وأنا أتذكر ساحة التحرير وما يرتبط بها من ذكريات



فظيعة. دفعني شولي وهو يشير إلى نصب الحرية الذي يستحوذ على المكان: إنها منحوتة حجرية يبلغ طولها خمسين متراً وارتفاعها تسعة أمتار، ثبتت عليها تماثيل برونزية.

ـ أتعرفين أن النصب يقدم لنا استعراضاً لتاريخ الثورة؟

ـ اسكت، قلتها بسرعة على أمل ألا يكون السائق قد سمع هذه الملاحظة.

ـ أتعني ثورة ١٤ تموز، قال السائق وهو يتطلع إلى شولي في المرآة متسائلاً.

قام أبي بإنزال حاجب أشعة الشمس، وهو يتململ باضطراب في جلسته إلى جانب السائق، محاولاً عبثاً التقاط نظرات ابنه في مرآة الزينة المثبتة أمامه.

ـ بالضبط، تاريخ ثورة ١٩٥٨، إنها تتيح لنا قراءتها في تتابع تاريخي من اليمين إلى اليسار.

ـ ماذا تعني بالتتابع التاريخي؟

ـ انظر إلى أقصى اليمين، إلى هناك في الجهة الأخرى. ألا ترى الجواد؟ هذا يعني، في البداية كان الحصان! وهذا غاية في البساطة. بيد أن النصب أصبح الآن خلفنا، فبدلاً من أن يستمر في طريقه إلى المدينة، استدار سائق التاكسي نحو اليسار، من غير أن يسأل، ليمر حول الساحة، ليوفر لنا ولنفسه الفرصة في تأمل الحصان الأول. نقرت أمي على كتف أبي، تريد منه أن يتصرف بشكل ما.

ـ لتكف عن هذا، فوراً، يا شولي . . . قالها والدي بغضب باللغة الإنكليزية وهو يستدير.

تجاهل شولي طلب والدي واستمر مسترسلا في إيضاحاته للسائق في لهجة دارجة في الأحياء الإسلامية.

ـ في البداية كان الجواد، الجواد العربي، رمزاً للنقاء والحيوية. الحصان يشب غاضباً. الناس من حوله يتلوون من الألم وهم يمدون بانفعال سواعدهم وأرجلهم. هناك رجلان يقبعان خلف القضبان. ثلاث أمهات ثكلى يبكين أبناءهن القتلى. صورة تعبر عن العنف والعسف. لمرحلة ما قبل الثورة.

رفع السائق عنقه وهتف،

ـ لكن أين أقدامهن؟ الله، النساء بلا أقدام! والشهيد في الجانب الآخر، في الوسط، يقف على رأسه، أليس كذلك؟ لماذا؟ ربما كان الفنان مخموراً، عندما أنجز ذلك؟ ها، ها . . . أم أنه لم يتعلم فنه بشكل سليم؟

ـ بالطبع، تعلم ذلك! لكن يستطيع الفنان وفقاً للفن الحديث أن يصور الناس هكذا، كما يراهم. فالميت في حالة استلقاء، على سبيل المثال، وجرى تصويره من الأعلى.

أوقف السائق سيارته ومكث يتأمل الجدارية بعيون جديدة، مفتتناً بشروح شولي. قام سائق تاكسي آخر قادم من جسر الجمهورية بالضرب بلا توقف على زمور سيارته، وهو يستدير نحو الساحة، حتى بعد ما اجتازنا. لم يشغل السائق نفسه بالأمر، إنما قام بإشعال سيجارة بكل هدوء.

ـ من أعلى! ردد ذلك بنبرة يتداخل فيها اللهو بالدهشة.

ـ حسناً، لنأخذ المقطع الوسط. أترى التمثال الضخم، الرجل الذي يعتمر خوذة، الذي يبدو وكأنه لاعب

لوحة: جواد سليم



رياضي يثب تحت الشمس؟ إنه على ما يظهر جندي، يقوم بفك القضبان الحديدية ويأخذ بيد السجناء إلى الحرية.

ـ انتظر، انتظر! أي حرية؟ أين هي الحرية؟

ـ يرمز لها من خلال المرأة التي تحمل مشعلاً ـ والتي تقف هناك إلى يسار الجندي.

نظر السائق نظرة متفحصة للتحقق من مزاعم شولي، ثم ابتسم بشماتة.

ـ حقاً، هذه امرأة. تصورت، أنك تمزح. امرأة كرمز للحرية! إنه يبدو معاصراً جداً! أيرى الفنان الأمر هكذا؟

ـ لا، إن هذا رمز إغريقي قديم قدم الدهر.

ـ لا أعرف، إن كان الفنان إغريقياً! هتف السائق وهو ينهي الدورة الثانية حول ساحة التحرير.

ـ لا أبداً، إن جواد سليم فنان عراقي.

ـ إذن كيف يستخدم رموزاً إغريقية؟ أهي ثورتنا، أم ثورة الإغريق؟

ـ ليس الأمر كذلك. فتراث الفن عالمي.

أسند السائق رأسه إلى راحته اليسرى وهو يضع مرفقيه على إطار النافذة، ويمنح نفسه الوقت، ليفكر بما قاله شولي. أضحى ولدنا فيلسوفاً، همست أمي. قام أبي بوضع النظارة الشمسية على عينيه. بينما واصل أخي إيضاحاته بسطوة لا جدال فيها.

ـ المرحلة الختامية، حيث المشهد القائم على الجانب الأيسر من الجدارية، تعكس انسجاماً. إذ تحولت القضبان إلى أغصان. رجل آشوري وآخر سومري يرمزان إلى العرب والأكراد، حيث يمسكان مسحاة معاً. بينما تمثل المرأتان دجلة والفرات. انظر إلى التمثال في أقصى اليسار. يظهر الرجل الضخم الذي يحمل في يده مطرقة عامل. هكذا تسود حالة تعبر عن السلام والحرية والخصب والإنتاجية، باختصار إنها نهاية سعيدة. صفر السائق، مندهشاً لطلاقة لسان شولي موجهاً حديثه إلى أبي:

ـ أمر كل يوم بهذه الساحة، وتصور، أنني لم أحمل نفسي، ولا مرة واحدة، مشقة تأمل النصب. هل يضيركم أن أقوم بدورة أخرى؟ آمل، ألا تكونوا على عجلة من أمركم.

وقبل أن يستطيع أبي الإجابة، أعطى إشارة ضوئية للاستدارة نحو اليسار وهو يبحث عن نظرة شولي في المرآة.

ـ لنرى، إن كنت استوعبت ذلك حقاً، يا أخي. في البداية كان الاضطهاد. ثم جاءت الثورة. وفي الختام الحرية، أليس كذلك؟ يختبر ذلك بنفسه، وهو يعد على أصابع يده الكلمات الثلاثة الأساسية.

ـ بدقة تامة.

ـ وبذلك انتهى الدرس، تنهد والدي معلقاً.

ـ باستثناء أن تقرأ من اليسار إلى اليمين! أضاف شولي، مع ابتسامة على جانب من شفتيه.

ـ سأنفجر اللحظة، قالت أمي محذرة أبي بصوت منخفض، بيد أنها اكتفت بالضرب على فخذها.

ـ ماذا يعني هذا؟ سأل السائق.

ـ لحد الآن قمنا بمشاهدة الصورة من اليمين إلى اليسار، لان العربية تقرأ هكذا. لكن لنفترض انك سائح إنكليزي تزور بغداد، وإنك قد مررت بهذه الجدارية . . . حينذاك ستقرأ بالطبع الترتيب التاريخي بطريقة معكوسة، هذا يعني، من اليسار إلى اليمين. أفهمت؟

ـ نعم، نعم، أنا أستطيع قراءة الإنكليزية لحد ما، لكن ليس لدرجة جيدة جداً.

ـ هذا ليس له أي أهمية، إنما عليك فقط أن تفكر بالإنكليزية، أو بالأحرى، تحسس الطريقة الإنكليزية! لذا عليك أن تغير الاتجاه وتنظر إلى مجريات الحكاية من اليسار إلى اليمين. عليك أن تحاول ذلك. ابدأ الآن من أقصى اليسار. ما هي القصة التي ترويها لك التماثيل الآن؟

يأخذ السائق نفساً عميقاً من سيجارته ويدور بسيارته، من غير أن يسأل أو يعلن عن ذلك، للمرة الرابعة حول الساحة. بينما كان يجول ببصره من نقطة إلى أخرى داخل النصب، أخذ يتمهل في سيره وكأنه تلميذ أثناء أداء الامتحان.

ـ في البداية كان العرب والأكراد يعيشون مع بعضهم البعض بوئام كالإخوة! وكان الرافدان يمنحانهما أرضاً خصبة. كانوا يزرعون الأرض. كان كل شيء في حالة ازدهار ونجاح. النفط ينبثق من منابعه. كنا سعداء



الكاتبة: منى يحيى

وأثرياء. كنا نخشى الله، ولا هم لنا، أي أننا كنا في الجنة.

ـ رائع، استمر.

ـ ثم . . . جاء جندي . . . وحطم هذا الاتساق؟ وحجب الحرية والعدالة خلف القضبان؟

شولي دندن بصوت هامس مؤيداً.

ـ ما الذي دفع بوطننا إلى الاختناق بالاضطهاد والمعاناة. فالسجون تغص بالرجال الأبرياء. والأمهات لا يتوقفن عن ندب أبنائهن الشهداء. يعيش الناس هنا حالة من اليأس المطبق. والجواد الأبيض يريد أن ينفر. لقد جرحت كرامتنا. وما زال الطغيان سائداً. يستغلنا الإمبرياليون. أصبحت حياتنا كابوساً. إنها الكارثة.

ـ تماماً، أيده شولي بارتياح مشوب بالكآبة.

يرمي السائق عقب سيجارته من النافذة ويدمدم متذمراً.

ـ هل ينظر الأمريكان إلى نصب حريتنا نظرة كهذه؟

ـ هذا ما أتوقعه. لكني، بالطبع، غير متأكد من مسألة الإمبرياليين، قال شولي وهو يضحك ضحكة خافتة.

ـ ماذا يعرف الأمريكان عن الذهنية العربية! بهذا ختم السائق حديثه وأخذ يضحك.

أشعل لنفسه سيجارة أخرى ثم سار إلى الأمام داخل المدينة. لم تمض سوى دقائق قليلة حتى وصلنا إلى دائرة الجوازات. نزل شولي من التاكسي، وأمي وأنا. بقي أبي جالساً ليدفع الأجرة. فاستغلت أمي الوقت، لتعنف إبنها:

ـ ألا يكفيك ما أنت فيه من صعوبات؟ في المرة القادمة لن يستطيع حتى الله أن ينقذك. لماذا تفعل كل هذا بي؟ هل تعتقد، أنني قادرة على تحمل الجحيم مرة أخرى؟

يبدو أن أبي قد دخل في نزاع مع السائق، الذي يبتعد متجاوزاً "مسافره، ثم يفتح الباب ويلوح له بيده. قام أبي بترك ورقة نقدية خلف الزجاج الأمامي. يتناولها السائق ويدسها في جيب والدي. بينما يضع والدي أحد أقدامه على رصيف الشارع وهو يهز رأسه احتجاجاً، يدفعه السائق إلى الخارج برفق. يحاول والدي أن يرمي الورقة النقدية عبر النافذة، لكن سائق التاكسي ينطلق بسيارته وهو يلوح له بيده مودعاً.

ـ لا يريد فلوساً، قال أبي موضحاً. قال لي، إن ما علمه إياه شولي، هو مكافأة عادلة بدلاً" من الأجرة. واستطرد قائلاً، إنه من الآن فصاعداً سيروي لكل مسافريه حكاية النصب، حين يمر بساحة التحرير.

ـ لكن في أية رؤيا يا ترى، قال شولي.

دس أبي الورقة النقدية ذات الثنايا العديدة في جيب قميص ولده.

ـ إني أحذرك يا شولي، من أن تتصرف بذكاء مثالي، إما أن تلزم الصمت، أو تعود في الحال إلى البيت. هل فهمتني؟

ـ رويداً رويداً! هون عليك، قالت أمي وهي تعاتبه برقة. كلنا بحاجة، في الساعات القليلة القادمة، إلى أعصاب قوية. لا أحد يعرف ما ينتظرنا في داخل هذه الدائرة؟

يبدو أن المسألة التي طرحتها أمي، تشغل بال كل اليهود، منذ أن أعلن في الأسبوع الأخير عبر المذياع، من أن الحكومة تريد أن تعوض عن الجور الذي ارتكبته الحكومات السابقة بحق الطائفة اليهودية. وسيتم رفع القيود، كتجميد السندات والأسهم وحسابات المصارف، كما سيسمح لهم ببيع العقارات. والأبعد من ذلك، على اليهود الراغبين بمغادرة البلد، تسجيل أنفسهم منذ الأسبوع القادم لدى دائرة منح الجوازات، في وزارة الداخلية، التي أنشئت خصيصاً لذلك. صعدنا درجاً سريع التفتت وكانت تصل إلى مسامعنا قهقهات من الطابق الثاني، ممزوجة بثرثرة صاخبة في اللهجة اليهودية. ورغم أنه كان يوم سبت، كان الممر غاصاً بالناس، كانوا منحنين على عمود الدرابزين، يدخنون ويتسامرون. يضعون خططاً ثم يتبادلون النكت حولها. رحبوا بنا ترحيباً حاراً، وارونا الاستمارات الموضوعة على المنضدة في قاعة الانتظار واخبرونا، أن الضباط الثلاثة المسؤولين هنا مهذبون ومستعدون لتقديم المساعدة. إنهم في حالة إجهاد! فهم لم يضعوا في حسابهم، أن يتعرضوا في اليوم الأول لازدحام ضخم كهذا.

قام والدي بملأ الاستمارات، وثبت صورنا عليها، وانتظر، إلى أن يأتي دوره. في غضون أسبوع واحد أصبح إصدار جواز سفر سهلا كسهولة شراء تذكرة اشتراك موسمية.

عدد اليهود الذين يتدفقون إلى هنا أخذ يتزايد. البعض تجشم عناء سفر طويل من البصرة، بعد حصولهم على موافقة خاصة للسفر إلى هنا. مع كل قادم جديد يزداد انتعاش الحاضرين ويعاد طرح ذات المراهنات. كانوا يناقشون نوع الجوازات التي سنحصل عليها. وإن كانت جوازات سفر اعتيادية أم أنها مجرد تصريح بالمرور؟ فجواز السفر يتيح لنا السفر إلى الخارج وكذلك العودة. أما التصريح بالمرور فانه يكون ساري المفعول لمغادرة البلد فقط، ويعني أن علينا التخلي عن جنسيتنا وأن نخلف ملكيتنا وراءنا. إنها صفقة رديئة، لكن هل نحن في وضع يسمح لنا بالتفاوض بحرية كبيرة؟ من كان يتوقع أن تخضع هذه الحكومة للرأي العالمي أصلاً؟ والله، كان خبر هبوط رجال فضاء أمريكيين على القمر أكثر مدعاة للتصديق من سفرنا على متن طائرات الخطوط الجوية العراقية وهبوطنا بأمان في بلد حر. هذا يعني، أن إسرائيل قد توصلت إلى اتفاقية مع العراق لصالحنا ـ بالطبع من خلف الكواليس. قيل لنا، إن كندا وأسبانيا وهولندا وبلجيكا على استعداد لاستقبالنا. ما هي اللغة الشائعة في هولندا؟ أيوجد يهود في بلجيكا؟ لعلهم ليسوا من الاشكيناز؛ هل تتخيلون، أن من الممكن أن يتزوج شبابنا من فتياتهم؟ أين تتوفر أفضل الفرص، لفتح متجر جديد؟ أين تكون أفضل جامعات العالم؟ وأفضل الأطباء؟ ماذا يرتدي الناس في كندا؟ يزعم أن درجات الحرارة هناك لن ترتفع أكثر من درجة الصفر. كم عدد الحقائب التي سيسمح لنا بأخذها؟ يقال إنّ الفرنسية التي يتم تداولها في منطقة الكيبك في كندا تختلف تماماً عما تعلمناه في المدرسة. لعلنا نستطيع الاحتفال بالعام الجديد في بلد آخر؟ عدا أنهم قد يخدعوننا بالطبع.

خرج أبي من المكتب.

ـ لقد تم إنجاز أهم الإجراءات الرسمية. عليّ أن أحضر إلى هنا في الأسبوع القادم وأن أوقع على بقية الأوراق. حالما يتم جمع كل الأوراق، يكون الأمر قد أوشك على النهاية، هذا ما قالوه. كلا، لم يخيل إليه، أنهم يخدعوننا! ما أن غادرنا البناية، حتى أحاط أبي أمي بذراعه، بعفوية.

... من يعلم، ربما كان الأطفال يستطيعون أن يكملوا ذلك مع نهاية الشهور الثلاثة من فصل الخريف الدراسي ...

لم يقم أبي من قبل باحتضان أمي بذراعه في مكان عام! أصبح سيره سهلا على حين غرة، وصوته خالياً من الهم. وبدا لي وجهه غريباً تماماً: وجه رجل شاب، وُعِد بالقمر.

ترجمة: علي أحمد محمود

المصدر: Mona Yahia: When the Grey Beetles Took Over Baghdad.

Said سعيد

منمنمات قاهرية

يوميات كاتب إيراني في مصر

١١ أيار/ مايو ٢٠٠٢

أصل إلى مطار القاهرة في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة مساءً بتأشيرة سليمة ملصوقة في جواز سفر اللاجئين السليم الذي أحمله. جعلتني التجارب السابقة أكثر حصافة فطلبت من السيد فيتسل، المسؤول في معهد غوته بالقاهرة، أن يستقبلني بالمطار. يدعي أحد ضباط شرطة المطار أن السلطات الأمنية لم تتخذ قراراً بعد بشأن تأشيرتي. أنتظر جالساً على كرسي بالمنطقة المحايدة. أعداد لا حصر لها من رجال الشرطة تتجول في المكان. تفصح نظراتهم لي عن مزيج من الفضول والاحتقار، حتى عاملات النظافة بحجابهن المحكم يرمقنني أيضاً بنفس تلك النظرات. خلف الحاجز يجلس جندي. ترقد طاقيته بجانب بندقيته الآلية على المائدة. لقد خلع حذاءه. يقرأ القرآن ويتمايل بجذعه رائحاً غادياً مثل يهودي متدين. هل يحمي هذا الورع دولته بالبندقية الآلية أم بالقرآن؟ أخيراً تُخرجني السفارة الألمانية بعد أن أبلغها معهد غوته بالأمر. بعد أربع ساعات من الانتظار أطأ أرض مصر.

نصل إلى الفندق عند منتصف الليل. عند المدخل بوابة إلكترونية كتلك التي بالمطار، لكن هذه الأخيرة لا تعمل. يلوح الشرطي المتثائب الجالس أمامها لنا متعباً. يقدمني السيد فيتسل بصفتي د. سعيد. يتطلب الجنوب بعض الأكاذيب. عشاء متأخر مع السيد فيتسل. رداً على سؤاله عن رغباتي، أفصح له عن رغبتي في تفصيل بدلة هنا بمصر. ليست هناك مشكلة، فمجدي التقني الذي يعمل بالمعهد له أخ يعمل خياطاً. كتمت رغبتي الأخرى في أن أشهد ذبح جمل، حيث أنني لم أبرأ بعد من آثار المعاملة في المطار. بعد العشاء نزهة قصيرة. تعود إلى ذاكرتي الآن مشاهد الناس والشوارع في طهران قبل أربعة عشر عاماً.

١٢ أيار/ مايو

القاهرة مزعجة، تنمو وتتسع دون أن تدري إلى أين؟ الأشجار قليلة، لكنها متألقة. هل يرمز ذلك لانتصارها على الصحراء؟ أو هل يعتني بها البشر جيداً؟ أمام الفندق يقف زير مليء بالمياه في الظل، سبيل للعطشى وبلا مقابل. يجيء سائق معهد غوته لإحضاري ويريد أن يعرف مني على الفور إن كان الشاه أفضل أم الخميني، لا تعجبه إجابتي بأن الاثنين وجهان لعملة واحدة. أمام المعهد يقف عسكري ويحرس الثقافة الألمانية ببندقيته الآلية. أمام كل مؤسسة وكل بنك يقف عساكر يشبهون في سوء تغذيتهم وأعينهم الخائفة الوجلة قطط القاهرة وهم لا يعرفون إن كانوا يحرسون شيئاً ما أم يخافون من شيء ما.

يرحب بي السيد ايبرت مدير معهد غوته بود ويقدمني لزميلته السيدة غادة الشربيني. اليوم في المساء سألتقي مع نجيب محفوظ. يجلس نجيب محفوظ كل سبت في فندق "شيبرد" ويحج إليه مريدوه. اتفقنا على ألا أزعج الأديب الحائز على جائزة نوبل.

بعد الظهر حوار مع صحيفة «أخبار الأدب» وهي أهم صحيفة أدبية في البلاد. يرأس تحريرها الروائي جمال الغيطاني. يقدم مجدي نفسه إليَّ بلغة ألمانية سليمة. ينبغي علي أن أتصل به في الساعة التاسعة مساء حتى يأتي ليأخذني إلى أخيه الخياط. يعطيني رقم تليفونه المحمول. الجميع تقريباً يمتلكون تليفوناً محمولاً، فالتليفون العادي صار بلا فائدة. ثم الطعام مع السيدة غادة الشربيني. أتعلم كلمة جديدة، كلمة خبز معناها بالمصرية «عيش»، الكلمة نفسها تعني في مصر الحياة وتعني في إيران المتعة.

مكتب جمال الغيطاني صغير ومليء بالكتب والملصقات والصحف. يحييني بود شديد. جمال عاشق للتراث الإيراني. يعدد لي عناوين المؤلفات التي أشرف على إصدارها من جديد في السنوات الماضية. معه تليفون محمول. لا بد أن التليفون الموجود على المكتب ما هو إلا للزينة فقط.

يقدمني جمال لنائب رئيس التحرير محمود الورداني. يبدأ الورداني الحوار بعد ذلك مباشرة. تبهرني أسئلة

محمــود وأبعادها. في النهاية يقــول لي إنه روائي وقد ترجمت له قــصص إلى الألمانية ضمن أنطولوجــيا للقصة المصرية صدرت عن دار لينوس السويسرية. لا بد لي أن أسأل نفسي: متى قام روائي بمحاورتي من قبل؟ لم يحدث لي ذلك في ألمانيا قط.

عند الوداع يقول لي الغيطاني: "سنتقابل غداً أمام مسجد السلطان حسن، أكبر مساجد القاهرة"، ثم يغمز لي بعينيه: "أمامه على الناحية المقابلة يرقـد الشاه. حينمـا احتفل بمرور ٢٥٠٠ عام على اعـتلاء أسرته العرش، هل كـان يظن أن مثواه الأخيـر سيكون هنا؟" أسأله إن كـان علي أن أزور قبـر الشاه، أنا الذي ناضلت ضده طوال الوقت. ويجيب جـمال : "وهل لأحد سوانا أن يفـعل ذلك، فنحن معارضـيه،_لا نبغضه رقدته الأخيرة" ثم بعد فترة من الصمت "يا صديقي، إن المغلوب يستحق الاحترام" يعانقني.

تصر السيدة غادة الشربيني على أن تريني زقاق المدق. لقد خلده نجيب محفوظ في روايته. لا نتمكن من الوصول إلى الزقاق. تسأل والرجال يجـيبونني. السيدة غـادة الشربيني ذات شخصية قـوية وتتجاوب مع الناس بود. زقاق المدق زقـاق قصيـر والمباني مهـدمة. لا أحد يسكن هنا. وحتى المقهـى الذي دارت فيه أحداث الرواية مغلق. المقهى صغير، ألقي نظرة عبر النافذة داخل المقهى. لم يطأه أحد منذ شهور.

تنتظر سيارة أجرة. أوروبيات بشورتات قصيرة يجلسن أمام المسجد ويظهرن الكثير من سيقانهن. أتساءل إن كان ذلك ضـرورياً؟ في الطريق إلى الفندق تنتابني حـمى النظام الألمانية: أليس من الممكن تنظيم الأمور بصورة أفـضل في هذه المدينة؟ سائق سيـارة الأجرة يريد مقـارنة شارون بأدولف هتلر. كيف أستطيع أن أوضح له في ست دقائق حجم هذه المأساة وخطأ تصوره؟ الجـميع يسألونني هنا عن رأيي في إسرائيل. لا أحد يتساءل عن أحواله الخاصـة وعن هذا الفقر أو يتذمر منه. تصرف الدولة اليهودية انتباه الناس هنا عن مشكلاتهم الاجتماعية بشكل كبير، فهل هذا هو دورها المحتوم؟

يصلي موظف الأمن في الشـارع أمام الفندق. لقد وضع تليفـونه المحمول على الأرض. هل يصلي لهذا المخلوق البلاسـتيكي؟ المصريون يصلون في كل مكان، في الـشارع، في المطار . . . من الواضح أن ربهم ليس له بيت.

في المساء أجلس في شـرفة الفندق وأنظر إلى المنازل المتسـخة. لماذا لا يهب واحد من آلهة هذه المدينة لها مطراً لمدة شهر كامل؟ أم يفكر هذا الرب في الفقراء الذين قد يفقدون مساكنهم؟

الجنوب: ما الذي يثير أعصابي فيه؟ هل هي تلك الذبابات العنيدة وحدها؟

يأتي مجدي في الساعة التاسـعة ليأخذني إلى أخيه. يسألني إن كان الرأي العام في ألمانيا مع المسلمين. ثم يقول: "نحن المسلمين ندين هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ماذا سنستفيد من موت الأبرياء. بن لادن عميل للولايات المتحدة. يعمل لها بدون أجر."

يمطرني أخوه بوابل من الأسـئلة عن سلمان رشدي. هل أساء فعـلاً إلى القرآن؟ في نهاية الحديث يقول: "ينبغي له أن يعيش، فهو أيضاً من خلق الله."

١٣ أيار/ مايو

يؤذن المؤذن لصـلاة الظهـر. لا أشـعـر بشيء. هل انسلخ منـي شيء؟ أم أنني لم أعـد أتقـبل الجنوب وجمالياته. في الساعة الرابعة عصراً يصيح ديك بالقرب من المكان. بطء المصريين، هل يتحدون به طول بال الموت؟ كيف يذبحون الجمال هنا؟ هل أريد حقاً أن أرى فظاعة هؤلاء البشر الطيبين؟

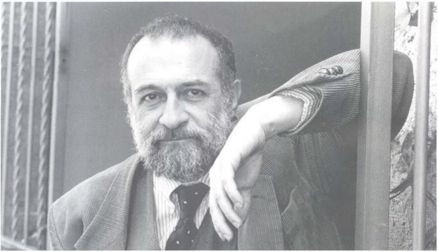
١٤ أيار/ مايو

هل يتحمل الجنوب تلك المحدوديـة التي أصبحت طابعاً لي في الشمال؟ رعب الاستـهلاك يتبدى هنا في كامل عريه. يبدو وحشياً بينما يبدو في الشمال متخفياً.

أنزلق عن الرصيف وأسقط على التراب. يهرع إلي عسكريان يحملان بندقيتـيهما الآليتين ويساعداني على النهوض وينفضان التراب عن ملابسي ويقدمان لي كرسياً ويسألاني إن كنت أريد ماء أم قهوة أم شاياً؟

عبر النافذة أرى سيدتين داخـل مكتب سياحة، إحداهما محجبة والأخرى بدون حـجاب، كانتا تضحكان وتنجزان أعمالهما سوياً. هل يمكن للمرأتين أن تتعاديا، حينما ينفجر الوضع في هذا البلد المتسم بالوداعة؟

في المساء موعد القراءة بمعهد غوته. يقتصر الحضور على أعضاء نادي القلم المصري. يأتي السفير الألماني



وهو رجل مثقف ولطيف وغير متكلف. ينصرف بعد نهاية القراءة دون أن ينتظر سماع الأسئلة.

كيف استطاع اليهود أن يتخلصوا من ذنب قتل المسيح خلال خمسين عاماً فقط؟

متى تشعر ألمانيا أخيراً بخلاصها من الذنب؟

لماذا تخليت عن ثقافتي وأخلصت للثقافة الأوروبية؟ بعد ذلك أعرف أن معظم الحضور قد أتوا لتوهم من مظاهرة أمام السفارة الإسرائيلية.

١٥ أيار/ مايو

رحلة إلى الإسكندرية. انتظر السائق في الصباح الباكر ليذهب بي إلى محطة القطار. تبدو القاهرة في هذه الساعة الصباحية الباكرة نظيفة جداً. النظافة لا تتضح هنا من تلقاء نفسها، لا بد للمرء أن يبحث عنها أولاً؟

هل أخلط بين النظافة والغنى؟

ينطلق القطار. على السكة المجاورة يجلس رجل ويدخن سيجارته. لا يكترث بشيء. ربما يعرفه سائق القطار ويعرف متى ينهض ويذهب. نظرة عبر النافذة. أرض منبسطة ترعى فيها الجواميس بغير اكتراث. أخيراً لا أرى سيارات ولا اختناقاً، وفي وسط الأرض السهلة أرى صبياً يقف بجانب جاموسة واضعاً يديه في جيبيه ويتأمل المكان من حوله. لم يلوح للقطار عندما مر أمامه، هل يرعى الجاموسة أم أنها ترعاه؟

أبراج حمام كثيرة، روث الحمام كسماد؟ يعمل فلاح في الحقل. لقد بنى مظلة من القماش لخرافه الأربعة وعلى البعد يقف حمار، بالقرب من بركة، وحيداً.

اسم الإسكندرية مكتوب على لوحة وتحته رقمها البريدي.

أحج إلى بيت قنسطنطين كافافيس، الذي تحول الآن إلى متحف، على المدخل لوحة مكتوب عليها: "هنا عاش الشاعر السكندري قنسطنطين كافافيس". سوداني بشوش يحرس كافافيس. تنفتح نافذة مكتب كافافيس على كراج، ملك للجالية اليونانية.

يعيش في الإسكندرية اليوم خمسمائة يوناني. سألت السوداني عن عدد زوار كافافيس. بالأمس زاره ثمانية أشخاص.

الكنيس اليهودي: مبنى مهيب بدرج ضخم. محكم الإغلاق. باستثناء الحراس، لا يستخدمه أحد في الوقت الحاضر. هناك ثلاثون يهودياً بالإسكندرية. أغلبهم كبار في السن ومعظمهم من النساء. عندما يموت أحدهم لا يكتمل العدد اللازم لصلاة الجنازة «كادش» وهو اثنا عشر شخصاً. عندئذ تستورد الطائفة بعض السادة من القاهرة، القنصلية الإسرائيلية هي المسؤولة عن هذه الأمور. كل المدينة تتجنب القنصل.

كنيسة القديس مرقص تقع على الجهة المقابلة للكنيس. هنا يرقد رأس القديس مرقص، مؤسس الكنيسة

القبطية. الجدران الداخلية مزينة بالخط العربي، وهو شيء جديد بالنسبة إلي، بينما هو مألوف هنا.
الضريح البسيط: بعض الزهور اليانعة القليلة، كثير من الأوراق العامرة بالأمنيات، أتردد في إلقاء أمنيتي، ولكن ماذا ستكون تلك الأمنية، حين يسألني الخادم الذي رافقني إن كنت مسيحياً. أتنازل عن الأمنية وأشعل بدلا من ذلك شمعة للقديس مرقص ولهذه الكنيسة وللأقباط الذين ما يزالون يعانون من تضييق الخناق عليهم. وفي المساء القراءة. يلقي ممثل اسكندراني أشعاري بالعربية. يمثل «فاوست» مع فرقته. ليس لديهم مسرح خاص بهم. يأملون في أن يعرضوا بمعهد غوته. يحكي لي أمثولة:
مصر تشبه قطار إكسبريس يسير ليصطدم بسور. والجميع يعرفون ذلك لكن لا أحد يشد مكبح الطوارئ، لأن من سيقوم بذلك سيكون حينئذ هو المسؤول.

١٦ أيار/ مايو

بعد الإفطار أجلس في مقهى «ديلسيس»، تأسست عام ١٩٢٢، من المحتمل أن كافافيس قد جلس هنا. الجو بارد بالداخل. الأثاث له ذوق والنادل مهذب. على المائدة المجاورة يجلس عاشقان. هي ترتدي الحجاب. شديدا القرب من بعضهما. تقبل يديه.
في الإسكندرية ولد الشاعر الإيطالي جوزيبي أونغاريتي والشاعر اليوناني قسطنطين كافافيس والسياسي الألماني رودلف هيس.
في زمن ما، قبل اختراع كلمة المجتمع المتعدد الثقافات في أوروبا بوقت طويل، عاش هنا الأرمن واليونانيون والإيطاليون واليهود والمصريون متجاورين في سلام، ثم جاء جمال عبد الناصر وأمم قناة السويس، وكانت النتيجة هي العدوان الثلاثي كما يسمونه هنا. إنكلترا وفرنسا هاجمتا مصر وشاركتهما إسرائيل. يمكننا أن نتصور لبرهة، ما كان سيحدث لو قاتلت إسرائيل إلى جانب المصريين!
بعد هذا الغزو هرب «الأجانب»، وتدهورت أحوال الإسكندرية لتصبح ريفاً. الموال القديم: الدولة القومية تحرر وتحقق المساواة. واليوم: بم يتمسك البشر اليوم؟ اختفى التراث وبقيت الحداثة و٩٠ في المائة منها من البلاستيك.

١٦ أيار/ مايو

مترو الأنفاق بالقاهرة. العربات المخصصة للنساء.
القراءة الثانية بمعهد غوته. فوضى شاملة. أناس يدخلون ويخرجون وتليفوناتهم المحمولة ترن. بعد القراءة، يستبق كل المتناقشين أسئلتهم بالترحيب بي. لماذا تتميز السياسة الخارجية الألمانية تجاه إسرائيل بالمداهنة؟
لماذا يقترب شعري من راينر كونتسه أكثر من حافظ؟
بعد القراءة يأتيني مجدي. البدلة جاهزة. إنها جميلة وقد كلفتني ٤٥٠ جنيهاً بما في ذلك القماش. يبلغ مرتب مجدي في معهد غوته ١٨٠٠ جنيه شهرياً.

١٧ أيار/ مايو

يحضر شاب غسيلاً نظيفاً إلى الفندق ويحصل على أجره. يقبل كل عملة ورقية ويضعها على جبينه ثم يحشرها في جيبه. اليوم هو الجمعة، معظم المحلات مغلقة، كم مريحة هي الشوارع وهي خالية.
اكتشفت لافتة إعلانية فوق أحد صناديق القمامة بالمدينة: كان مكتوباً أعلاها "Coca Cola" وتحتها "keep Egypt clean". كوكاكولا تخلص مصر من النفايات.
يجلس رجل في الشارع ما بين سيارتين واقفتين. يصلي في رداء أبيض. ينادي ربه. صوته مليء بالحزن وبالنغم. غارق مع ذاته ولا يكترث بأحد.

الشاعر سعيد ولد عام ١٩٤٧ في إيران، ويعيش اليوم في ألمانيا ويكتب باللغة الألمانية؛ كان لسنوات عديدة رئيساً لـ «نادي القلم» الألماني. هذا النص «تمتمات قاهرية» كتبها خصيصاً لمجلة «فكر وفن».

ترجمة: أحمد فاروق

أحمد حسو

Ahmad Hissou

عالم صدام حسين

في الوقت الذي كان العالم يحبس فيه أنفاسه خوفاً من وقوع حرب يكون حاكم بغداد أول أهدافها، أطلت دار الجمل للنشر (كولونيا /ألمانيا) على قرائها برواية فريدة تتناول حياة صدام حسين الذي طبع تاريخ العراق في العقود الأربعة الأخيرة بطابعه الشخصي. وبعد كل هذه الفترة من الحرب وسقوط النظام العراقي والغموض الذي يلف مصير دكتاتور العراق، ازدادت أهمية رواية «عالم صدام حسين» للكاتب مهدي حيدر. هذه الرواية لا تشبه في شيء كل ما كتب حتى هذه اللحظة عن طاغية بغداد. فهي ليست سيرة ذاتية فحسب، ولا تقدم تسلسلاً تاريخياً لحياة هذا الرجل فقط، بل تنسج العالم الخاص بهذه الشخصية الذي هو في الوقت نفسه تاريخ العراق والنخب العراقية والعربية. صدام حسين، الحاكم الذي تحول إلى الكتابة الروائية وأصدر روايتين، يظهر هنا كبطل لرواية يكثف كل الأحداث التي مرت بها العراق والمنطقة العربية منذ سقوط الملكية في بغداد وظهور الفكر القومي العربي ممثلاً بشقيه الناصري والبعثي.

ورغم أنّ الناشر أكد مراراً أنّ مهدي حيدر اسم مستعار لكاتب الرواية الأصلي، ودارت نقاشات وتكهنات كثيرة في الصحف العربية حول هوية الكاتب فإنّ هذه المسألة لم تغير شيئاً في قيمة هذا العمل الفني الفريد. نص محكم يتناول حياة شخصية معاصرة يعرفها القاصي والداني. مهدي حيدر يحبس أنفاس قرائه منذ الصفحة الأولى من الرواية ويشده إلى القادم الذي سيأتي. إلا أنّ الكاتب يخيب ظن قرائه، فهو لا يتحدث عن دكتاتور، كما عهده القارىء في الدوريات والكتب وحتى الروايات. إنه يروي عن طفل كبير صلب يختلف عن أقرانه ويعرف تماماً ماذا يريد.

يظهر صدام مهدي حيدر متماسكاً واثقاً من نفسه يدير خيوط اللعبة بإحكام ويستغل كل صغيرة ليقوي نفوذه في حزب البعث ومن ثمّ في جهاز الدولة الإداري والسياسي. بدأ صدام تسلقه من خلال الأجهزة الأمنية ووضع الجميع تحت تصرفه، بمن فيهم ولي نعمته الرئيس العراقي السابق أحمد حسن البكر. صدام صنع اسطورته بيده، لكن بالطبع من خلال مظلة البكر. فالبكر كان منذ البداية ضابطاً معروفاً وشارك في كل الانقلابات التي شهدتها العراق منذ سقوط الملكية وتبوأ من خلالها مواقع قيادية في الجيش والدولة، على النقيض من صدام الذي كان نكرة، أو في أحسن الأحوال شاباً متهوراً يمكن استخدامه في العمليات القذرة.

ومن هنا بالذات صنع هذا الرجل النكرة تاريخه الشخصي وتسلقه من خلال عملية قذرة. فصدام لم يكن في أي يوم من الأيام منظراً في الحزب، ولا ضابطاً من ضباطه.

مهدي حيدر يرسم بدقة خط صعود الرجل منذ اليوم الأول الذي اشترك فيه بمؤامرة اغتيال الرئيس العراقي الأسبق عبد الكريم قاسم الفاشلة. ورغم أنه لم يكن من الأساسيين الذين كلفوا بإطلاق النار على قاسم، إلا أنه الوحيد الذي جنى ثمار هذه العملية.

ربما يجدر بنا أن نطلق على هذه الرواية اسماً آخر غير عالم صدام حسين، أي صناعة دكتاتور مثلاً، أو كيف تتسلق إلى الأعلى في بلد كالعراق من الصفر.

صدام حسين بطل لتراجيديا عراقية مرسومة بدقة، فجميع الأبطال الآخرين يتحولون إلى أسرى في شباك هذا الصياد القادم من هامش المجتمع، ذي الطفولة البائسة، أو يسيرون إلى حتفهم بطريقة قدرية لا حول لهم فيها ولا قوة.

أو لنقل إنّ القدر ساعد هذا الرجل ليزيح عن دربه كل الطامحين في حكم العراق! لكن كيف؟

حكام العراق الذين رسم مهدي حيدر أقدارهم على يد صدام حسين أناس ضجرون بائسون لا يهمهم إلاّ التلذذ بالمأكولات أو المشروبات. ومع طموحاتهم السلطوية فإنك تلاحظ وكأنّ الحكم وبال عليهم لا يعرفون كيف يتصرفون به. فالرئيس عبد الرحمن عارف عازف عن السلطة، لا يدري كيف جاءته، ولولا حادث الطائرة المشؤوم الذي أودى بحياة شقيقه الأصغر الرئيس عبد السلام عارف، لبقي على الهامش مسرحاً من الجيش. ولعل الصورة الساخرة، التي نسجها مهدي حيدر عن حياته اليومية، خير دليل على تفاهة النخب الحاكمة في البلاد العربية. فهو يأكل بطريقة وحشية لا تليق برئيس دولة. يضع سيخي اللحم بين خبزته ويلتهمها بعد أن يكون قد تعتع من شرب الأوزو.

أما البكر المدمن على تدخين الغليون، والذي لا يهمه شيء في هذا الكون سوى الحديث عن أنواع التبوغ، فيأكل بالشوكة والسكين ما يلفت نظر الطامح الآخر إلى السلطة، رئيس الوزراء عبد الرزاق النايف. وحده صدام يجيد شرب القهوة بالحليب البارد!

شخصيات تراجيدية تسير إلى حتفها بملء إرادتها وبسطحيتها وتفاهتها، وليس على صدام سوى الإخراج.

ما تقدمه الرواية لنا من صراعات بين النخب العراقية لا يتجاوز السطحي الذي يطفو في عالم السياسة ويتكثف في صراعات القصر الجمهوري وحزب البعث بأجنحته العسكرية والسياسية. فالنخب السياسية في هذا الحزب فئة ثرثارة لا تجيد إلا الكلام والتباهي به، وهي عاجزة عن الفعل السياسي، وهذا العجز هو الذي مهد الطريق لشخصية وحشية مثل صدام حسين بالاتكاء على الوحش الآخر ناظم كزار ليصفي كل النخب السياسية والفكرية وحتى العسكرية في هذا البلد. والنخب العسكرية تغير ولاءاتها حسب حصتها من الكعكة. فعبد الرزاق النايف، أحد أبرز العقداء الثلاثة في عهد عارف سرعان ما يتخلى عنه ويستجيب لخطط صدام الانقلابية مقابل وعد بتسلُّم منصب رفيع لا يبقى فيه إلاّ لفترة قصيرة، وهو نفسه كان يدرك ذلك. لكن القدر التراجيدي دفعه إلى الارتماء في فم الحوت، لأنه لو بقي مع عارف لربما استطاع البقاء طويلاً كصاحب نفوذ طالما أنّ الرجل زاهد عن السلطة ولا يهمه إلا البقاء وأن تسير العجلة ويواصل هو شرب الأوزو بضجر.

وحين تخلص صدام من رئيس الوزراء القوي عبد الرزاق النايف وأرسله إلى المنافي، ماذا فعل الأخير لاسترداد ملكه الضائع؟ هام على وجهه في الارض على طريقة امرؤ القيس، لكن كمسخ لهذا الشاعر العظيم الذي ترك وراءه معلقة شعرية أصبحت عملاً أدبياً خالداً. فلم يكن للنايف من همّ سوى التلذذ بالطعام وشرب أفضل أنواع الخمور في فنادق الدرجة الأولى في العواصم الاوروبية. هل يستعاد حكم بشرب النبيذ؟

والخصم الآخر، عبد الرحمن عارف تحول إلى مستثمر في استانبول يفتح المطاعم والملاهي ومحلات بيع الخمور في هذه العاصمة الإسلامية، وينجح هناك في البداية وتزدهر تجارته، لكنّ اللعنة تلاحقه إذ يغلق مطعمه المشهور بعد أن يتسبب في تسمم العشرات من الأتراك.



صدام حسين الشكاك يرسم مؤامرته بدقة وسط أشباه السياسيين هؤلاء ويمد شبكته الأمنية من خلال جهاز «حنين» إلى كل شبر من أرض العراق. وحتى تنجح هذه الشبكة لا بد أن يكون على رأسها صدام المتآمر والجزار ناظم كزار، ولا بأس أن يكون شيوعي مغضوب عليه من أسرته وحزبه، بجانبها يدير أرشيف هذا الأخطبوط القذر. رجل الأرشيف الذي يقرأ تولستوي بالروسية يسد النقص النظري لدى هذه الشبكة الجاهلة التي رسمت هدفها بدقة: إزاحة كل شخص يشتم منه قدرات قيادية تشكل خطراً على عالم الجهالة الذي سيجتاح العراق على أيدي ناظم كزار وصدام حسين.

بحنين وضجر السياسيين وثرثرة المثقفين يسود السواد أرض السواد ويحكم هذا الثنائي العراق، إلى أن يأتي الصدام بينهما، وبالطبع يربح الأكثر ذكاء، وهوصاحب القهوة السادة بالحليب البارد. رواية سوداوية تبعث على التقزز من كل من ساهم في حكم هذا البلد، وكأنّ الأقدار هي التي تدير آلة الحكم وليست القوى السياسية أو الاجتماعية أو البشر.

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

السّبي البابليّ

رواية عن بقايا اليهود في بغداد

لو كـانت خبـرة الحيـاة فـقط، هي الضمانة لكتابة رواية جيدة، لاكتفت الكاتبة بسـرد سيرة حـياتها المتـقلبة، لعرفنا سرّ نجاح هذه الرواية.

ولدت منى يحيى في بغداد في عـام ١٩٥٤، لعـائلـة يهـودية. في نفس الوقت كان قـد غادر ١٢٢,٠٠٠ من أصل ١٣٠,٠٠٠ يهـودي عـراقي البـلاد الى إسـرائيل، وهكذا بدأت نهاية الوجود اليهودي الذي دام طوال آلاف السنين في بلاد ما بين النهرين. وعلى عكس ما كان الحال في أوروبا، التي كانت تضطهد اليهـود باستمرار، فإن يهـود العراق عاشوا حـتى القرن العشرين في شـبه أمان. ولكن وبعد أن أصـبـح العـراق وفلسطـين تابعين للإتداب البريطـاني فقد زج باليهود العـــراقـيين كطرف فـي أحــداث الاضطرابات اليـهـودية ـ الفلسطينيـة وذلك بسـبب الـهـجرة اليـهـودية الى الارض المقـدسـة. وفي عـام ١٩٤١ حصلت أولى حملات اضطهاد اليهود في بغداد بعـد أن قام انقـلاب لصالح السياسة الألمانية النازية داخل العراق، لكنه سـرعـان مـا قـمـع على يد البـريطانيين. وعندمـا وقعت الحـرب الأولى بين العـرب واسرائيل في عـام ١٩٤٨ اشتد الضغط على اليهود حتى أن الكثيرين منهم حاول مغادرة البلاد في الخفـاء إلى أن سمـحت الحكومة العراقـية لهم بالمغـادرة. كان ذلك في بداية الخمسـينات، وكان الثمن التنازل عن الجنسية العراقية. فعدد المتبقين لم يزد عن بضـعة الأفراد كـان من بينهم أفـراد أسـرة منـى يحـيى. في عـام ١٩٦٩، السنة التي تبدأ و تنتهي فـيها قصة البنت لينا، يستعد اليهود المتبقون في بغـداد إلى الهـروب تحت أقـسى ظروف الخطر. وقصـتهم تشكل إطار وخلفية الكتاب.

فـعلى الرغم مـن كـثـرة الذكـريات والأحـداث المشـتـركـة بـين الكاتبـة والبطـلة، الطفلـة لينا، والتي تروي القـصـة من رؤيتهـا الذاتيـة، إلا انه يصـعب تصنيـفـها بالـسيـرة الذاتيـة للكاتبة. السرد الروائي البالغ الإحكام والمهارة لا يمكن تجاهلهـما، حيث كاد كل فصل أن يخلق درجـة شد ذاتية، ومع ذلك يحافظ على اتصاله بالقصة الكاملة. الأحـداث تعـرض بقـدر المستطاع بشكل مشهدي والحوار يسود أقسامـاً واسعة من الرواية. المعلومات التاريـخية عن يـهود العراق لا تـظهر وكأنهـا رحلة استطلاعية لكنهـا توفر للقـارىء المندهش الخلفـية اللازمـة. المنظور الروائي يبـدأ بالطفلة الصغـيرة وينتقل بعدها الى البنت المراهقة.

الجاليـة اليهودية كمـا توصفهـا يحيى معرضـة للتفرقة بصـورة واضحة، إنما في الفترة الأولى بعد دفعة الهجرة في عـام ١٩٥١ لم تكن مهـددة حقـيقـة بعد. في غالب الأحيـان يظل اليهود منعزلين ولم يختلطوا مع الآخرين في تلك الأثناء، والأطفال كـانوا يذهبون فقط الـى مدرسة يهـودية. أما الخطر الكامن الذي يحيط بهم فـلا يدركونه إلا عند انطلاق المسـيـرات من أجل القضية الفلسطـينية أو في حالة إحدى المحـاولات الانقــلابيـة. أثناء تلك الأحـداث تعطل المـدرسـة اليـهـودية مخافة أن تتعـرض لاعتداءات من قبل متظاهرين غـاضبين. ولأن كل حاكم يتـهم السابق بالتـعاون مع إسـرائيل، فـإن كل انقلاب كـان يضـيق الخناق على يهود بغداد. غير أن الوضع بقي قيد الاحتمال حتى عام ١٩٦٧ بالرغم من ان الكل أدرك عدم وجود مستقبل له في هذه البلاد. حتى ذلك الوقت بدت طفولتـها وكأنهـا لا تختلف عن تلك الـتي للأطفـــال المسلـمين في بغداد، ومن عـاش وتربى في مـدينة ألمانيـة في الخمـسينات فـانه لا بد أن يحـســد الطفلة لينا لـوفـرة الروائح والألوان والقـصص التي أحاطت بهـا في تلك البيئـة، والتي أبدعت الكاتبة بنقلها وتصويرها إلينا.

بعد النكسـة العربيـة في حرب الأيام الستـة ازداد وضع يهود العـراق سوءاً بصورة مثيرة.

تنجح مـنى يحـيى بنسج الاحـداث السيـاسية في العـالـم الصغـير للراوية المراهقة.

الأسـرة حائرة على من تعـول؟ على إسـرائيل أمْ على العـرب والأنـبـاء المتناقـضة لـلإذاعات المختلفـة تثير الاضطراب: "احـتبسنـا في حربٍ لا مفر منها ولا مـشاركة لنا بها، حرب سنخسـرها مهـمـا كان الأمـر. إن انهـزمت إسـرائيل سنخسـر إسـرائيل وكل أهلنا وإن غلبت إسرائيل سنخسر أنفسنا." قـمة مـأسـاة الرواية تبلغ ذروتهـا عندمـا ينفـذ حكم الإعـدام العلني في تـسـعة يـهـود يزعم بأنهم قـاموا بالتـجـسس لصالح إسـرائيل. فـبدلاً من الوصف المبـاشر للحـدث تعود يحيى الى تقنية أدبية مأخوذة من المسرح. أحد أصدقـاء المدرسة والذي كان مـعروفـاً بتهكـمه الخاص يـقوم بزيارة لينا التي تكاد تخـرج من البيت و يشدها حديثه عـن الجثث المعروضة جــهـــاراً ـ هي والقـــراء. من الآن فصـاعداً يزداد عدد الطـلاب الغائبين عن المدرسة ويزداد عدد الأُسر الهاربة من العـراق والمتبقـون لا ينتظرون إلا الفرصة للهروب.

لكي تنسى القـلق ترغب لينا لو أنهـا تتمكن من محو الأحرف العربية والتي حفظتها بصـعوبة في بداية الكتاب مع الإنكليزية و العبرية من ذاكرتها فتخلق «برنامجاً متناسقاً لنسيان العربية» لغتها

القومية. وعندما تعلم سلمى صديقة لينا بمشروعها، تقرر مصارحتها: "هل ترن الكلمات قذرة أو لذيذة إن كانت غير عربية؟ بأية لغة ممكن أن تقرأي بين الأسطر؟ هل تضحكين على النكت الإنكليزية، أتفهمين تلاعب الألفاظ بالفرنسية؟ هل تعرفين الضرب أو حتى العد، هل أنت قادرة على السبّ، هل باستطاعتك استدعاء الذكريات بلغة غير العربية؟"

منى يحيى أعطت الجواب بكتابها. بعد الهروب ذهبت أولاً الى إسرائيل و درست هناك الفرنسية وعلم النفس. ثم سافرت الى أوروبا، مكثت فترة في باريس، عادت الى إسرائيل ومنذ عام ١٩٨٥ استقرت في المانيا، درست في أكاديمية الفنون في كاسيل وعملها الرئيسي اليوم هو عالمة نفس. تتقن العربية حتى اليوم والعبرية أيضاً، الفرنسية، الألمانية والإنكليزية، اللغة التي كتبت فيها كتاب الذكرى هذا. لأنها كما تكتب: "لم تسيء اللغة الإنكليزية إلي، أو خانتني كالعربية وما طالبتني بالحق المطلق كالعبرية. بل بالعكس كلغة أجنبية تركت لي البعد المأمون لعالمي، بلاد اللامكان في رأسي."

بمنى يحيى ترتبط خاتمة أقدم التواريخ. تاريخ اليهود في العراق ببداية أحداثه، تاريخ تعدد اللغات،عابر الأوطان، تاريخ المواطن العالمي، الذي يعتبر البحث عن هويات، عن لغات قومية وربما حتى عن الأديان، بحثاً دون جدوى. والمواضيع الناتجة عن هذا العالم الجديد ستعرضها منى يحيى في كتابها القادم.

ترجمة: نيرمين الشرقاوي

هانز مارتين لومان
Hans-Martin Lohmann

نحن نحدد ما هو الإرهاب

يعد نعوم تشومسكي من أهم الأصوات النقدية في أمريكا. لقد عقد هذا العالِم ذو المكانة الدولية عزمه على هجر برج اللسانيات العاجي، وانصرف منذ عقود إلى تحليل طبيعة الإمبراطورية الأمريكية، ولاسيما مصالحها الأمنية وتطلعاتها السياسية. وبعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الإرهابية مباشرة أخذ تشومسكي على عاتقه توضيح كُنه تلك الحرب التي أعلنها الرئيس بوش على «الإرهاب الدولي». ماذا يختبئ وراء هذا المصطلح؟ وعلى أي شيء يشن الأمريكيون الحرب في حقيقة الأمر؟ ومن هو العدو؟

لم يعد أحد يعتقد، يقول تشومسكي، أن الأصولية الإسلامية ومعاداتها للعلمانية هي العدو، اللهم إلا أولئك الذين يصدقون بلا نقد أو تمحيص كل حرف تنطق به الآلة الإعلامية الرسمية في واشنطن. يشير تشومسكي، بحق، إلى أن الأصولية الدينية بحد ذاتها لا تمثل على الإطلاق عدواً بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لأنها منتشرة في ربوع البلاد، وتجد في كل أركان الولايات المتحدة قبولاً واسعاً. إن الأصولية تغدو غير مقبولة فقط عندما ترتبط بالمصالح التي تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، وهذا هو الحال في الشرقين الأوسط والأدنى. يشير تشومسكي هنا إلى فيض من الحجج المتناقضة التي تتشدق بها الإدارة الأمريكية وهي تخوض حملاتها الصليبية والعقائدية ضد ما تعتبره عدواً لها (مثال: محور الشر). فالولايات المتحدة تساند في بعض الأحيان وبكل صراحة الإرهاب، كما في حالة تركيا وحربها على الأكراد، وفي أحيان أخرى تتجاهل أو حتى تشجع إرهاب الدولة أو الإرهاب المضاد للدولة، وفقاً لمفهومها المرن للإرهاب: فنحن الذين نحدد ما هو الإرهاب.

يرد تشومسكي بقوة على الرأي الشائع الذي يدعي أن التطرف الإسلامي أو مشاكل العولمة هي محور الصراعات في الشرقين الأوسط والأدنى. إن المثقفين ورجال الأعمال العرب يرون بالأحرى أن الجماهير المعدمة تقابل سياسات الولايات المتحدة في المنطقة بالغضب المتزايد والشعور بالمرارة، لأن هذه السياسات تدعم بضمير مستريح أنظمة رجعية (مثل السعودية) طالما أن تلك الأنظمة تخدم طواعية المصالح الاقتصادية والجيوسياسية للقوة العظمى. ولهذا السبب تلقى شعارات بن لادن الإسلامية المشوشة صدى حتى بين أولئك الذين يعترضون على أفعاله الإرهابية ويتنصلون من أي علاقة تربطهم به.

إن ما يفضحه تشومسكي ويعرّيه في كتاباته هي سياسة القوة التي تنتهجها الولايات المتحدة، وهي السياسة التي تعوق التوصل إلى حل سلمي للنزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين، والتي لن تقود إلى سلام في هذه المنطقة المشتعلة إلا إذا تم تعديلها. وطالما تصر الولايات المتحدة، ومعها حلفاؤها الغربيون، على المضي قُدماً في هذه السياسة، فإن صوتاً، يدعو إلى التعقل ونزع التوتر والتوازن، كصوت نعوم تشومسكي لا يمكن الاستغناء عنه.

Noam Chomsky: The Attack

ترجمة: سمير جريس

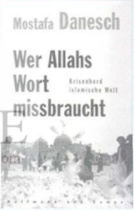
المصدر: "Die Zeit", Oktober 2002

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

مصطفى دانيش: من يسرق كلمة الله؟

لا غرو أن عملية تمييز الغث من الثمين في هذا السيل العارم من الكتب حول الاسلام تزداد مع الوقت صعوبة، رغم أن القليل من الكتاب يعطوننا انطباعاً غير جدي. الموضوعيون منهم يكتبون في أسلوب



جاف، والمتحمسون يخلطون غالباً وجهة نظرهم الشخصية للأشياء بالوقائع.

مصطفى دانيش اختار الطريق الوسط. فمن بين كل الكتب التي صدرت مؤخراً في ألمانيا حول الاسلام، فاز كتابه بأسبقية ترجمته الى الإنجليزية. ويعتبر هذا الصحافي الإيراني، الذي جاء إلى ألمانيا في الستينيات للدراسة، من أفضل خبراء آسيا الوسطى. منذ عشرين سنة وهو يبعث بالتقارير إلى التلفزيون والمجلات الإخبارية من أفغانستان، إيران والعالم العربي، وغالباً في ظروف خطيرة. هذه التقارير أكسبت كتابه حيوية المغامرة. لكن قطعاً لم يكن يحكي القصة من أجل القصة، بل من أجل وصف وتصوير العلاقات والظروف الواقعية.

وكعلماني، وقبل ذلك كإيراني يساري، حافظ دانيش على مسافة صحية ومتوازنة في علاقته بالعالمين الغربي والإسلامي. فنشوء الحركات الإسلامية المتطرفة يرده إلى الحرب الباردة وإلى البؤس السياسي والاقتصادي للدول العربية. وبهدف التخلص من قوى المعارضة والاحتجاج بداخلها، عمدت البلدان العربية في الثمانينات، وعلى نطاق واسع، إلى تصدير شبابها إلى أفغانستان. الشباب الجزائري والسعودي، الذي لم يحصل على عمل في بلاده ولم يتمكن من بناء أسرة، وجد في أفغانستان متنفساً له، وغالباً ما توصل كمكافأة له بامرأة من معسكر الأعداء. وقد دعمت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحركات من داخل باكستان بالسلاح والمال، كما شجعت زراعة الأفيون في أفغانستان، من أجل تحويل الجنود السوفيات إلى مدمنين، وهذا ما تحقق فعلاً إلى حد ما. ويعتبر تحويل الزراعة الأفغانية عن إنتاج الأفيون، من المهمات الملحة وفي نفس الوقت الأكثر صعوبة بالنسبة إلى الحكومة الجديدة.

زعماء أفغانستان الجديدة يعرفهم دانيش معرفة جيدة، بفضل عمله كمراسل في أفغانستان لأكثر من عشرين سنة، لذا ينظر إلى فرص نجاح هذه الحكومة بنوع من الشك. كل الوزراء الأفغان تقريباً ساهموا في تدمير وتجزئة البلاد بعد جلاء السوفيات، كما نقرأ ذلك بتفصيل لدى دانيش. رئيس الوزراء كرزاي فقط يعتبر بالمقارنة معهم صفحة غير مكتوبة. إنه لأمر ايجابي، ولكن في المجتمع الأفغاني القبلي، يتحول إلى أمر سلبي، فأن لا يكون للمرء سوابق، يعني أنه لا يملك سلطة كبيرة.

وحتى تحليل دانيش النموذجي للثورة الإيرانية، يعتمد كثيراً على تجاربه الشخصية. مثل كل الإيرانيين كان دانيش سعيداً لما طرد الخميني الشاه سنة ١٩٧٩، وكان يحلم ببداية ديمقراطية جديدة. لكن الخميني عمد في السنوات الثلاث الأولى للثورة إلى التخلص من معارضيه السياسيين الداخليين بطرق وحشية. ومن الأوصاف الرهيبة في كتاب دانيش، وصفه لزيارته لآية الله خلخالي، روبيسبيير الإيراني، الذي كان يصدر أحكام الاعدام في لمح البصر، والذي استضافه من ألمانيا لحضور إحدى جلسات محكمته. ورغم أن أخاً لدانيش قد سقط ضحية لنظام الخميني، إلا أنه يرفض مع ذلك إصدار أحكام إجمالية ويظل يميز بين الإسلام كدين وبين الاستغلال السياسي للإسلام من طرف الأنظمة الإسلامية في العالم. إنه يحجم عن تقديم حلول جاهزة. إنه يدعو القارئ لاجتراح فعل التفكير.

ترجمة: رشيد بو طيب

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

صورة دكتاتور

سيرة صدام حسين

إنَّ كتابة السيرة الذاتية لصدام حسين تشبه قضية محاكمة رئيس المافيا الذي قتل معظم الشهود. وانطلاقاً من هنا أدى الصحفي البريطاني كون كولين Con Coughlin مهمته على أكمل وجه. قد يكون الكتاب اعتمد، في محاور عديدة على تخمينات وشهود مشبوهين، لكنه صيغ بشكل جيد وبوضوح حول التشابكات

الداخلية لقوى النفوذ في العراق. والكتاب يحتوي أيضاً على آراء جديدة تدعم الحرب على العراق. ولا تُعد البشاعات التي ارتكبها صدام حسين في الثمانينات والتسعينات من أهم فصول الكتاب، بل أدرج فيه المؤلف وصفاً دقيقاً لحياة صدام ودربه السياسي الذي أوصله إلى الحكم التي لا يعرف عنها الغرب إلاّ القليل.

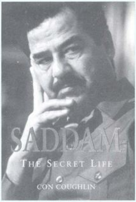
ترعرع صدام كطفل غير شرعي في ظل ظروف فقيرة جداً. وتُعد سنة ١٩٣٧ تاريخ ميلاده الرسمي الذي لا يُعرف بالضبط. كان العنف الجسدي جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية. وقد عانى صدام الظلم بشكل خاص من عمه (زوج أمه)، ولهذا السبب قضى معظم طفولته عند خاله خير الله طلفاح. كان طلفاح متأثراً ببعض تيارات القومية العربية الحديثة التي اتخذت من الإيديولوجية الفاشية الألمانية والإيطالية قدوة ومثالاً لها.

انخرط صدام وهو صغير في هذا التيار الفكري السياسي الذي يضفي عليه طابعه وتأثيره إلى اليوم. وخلال فترة قصيرة عُرف صدام داخل حزب البعث بعنفه وقيامه بالمهمات الخاصة، بما في ذلك التصفيات الجسدية. في سنة ١٩٥٨ ارتكب جريمته الأولى وذلك باغتيال غريم خاله. وشارك عام ١٩٥٩ وبتكليف من حزبه في محاولة اغتيال الرئيس عبد الكريم قاسم الذي جاء إلى سُدة الحكم قبل عام إثر انقلاب عسكري. لكن محاولة الاغتيال باءت بالفشل وأجبر صدام بعدها على الهرب إلى مصر. لكن شهود على هذا العصر أقل من قليلين بالإضافة إلى أنّ التدوين الرسمي للسير الذاتية لصدام حسين مجّده وأغفل العديد من أعماله هذه. ويعود الفضل إلى الصحفي البريطاني كولين الذي يحفّز القارئ على متابعة الأحداث بشكل نقدي، في لفت الأنظار إلى مثل هذه التشابكات.

عندما استلم حزب البعث سنة ١٩٦٨ السلطة، وأصبح الجنرال البكر رئيساً، وهو صديق لخال صدام، نجح الأخير في أن يصبح سكرتيره الخاص واستطاع أن يضع جهاز الاستخبارات تحت سيطرته. وبينما كان الحزب كعادته يستهين بابن الفلاح، كان صدام يفرغ سلطة الرئيس من محتواها الفعلي ويُضعف نفوذه حتى تمكن خلال فترة قصيرة من أن يسيطر على كل مفاتيح الحكم. وفي عام ١٩٧٩ بلغ الرئيس البكر مدىً من الضعف بحيث أنه لم يبق له خيار آخر سوى أن يوقع على استقالته التي طلبها منه نائبه. وهكذا أصبح الشاب القروي الفقير رئيساً لأغنى دولة عربية وهو لم يتجاوز الواحد والأربعين عاماً.

ما حدث بعد ذلك معروف من وسائل الإعلام. ففي عام ١٩٨٠ قام صدام بحرب طاحنة ضد جارته إيران، حيث كان الخميني قد استلم الحكم قبل ذلك بسنة. ورغم الدعم الهائل الذي أتاه من الغرب لم يستطع أن يكسب الحرب. وعندما تم توقيع السلام بينه وبين إيران عام ١٩٨٨ كان العراق غارقاً في الديون وقسم كبير من الشعب يعاني الفقر. لجأ صدام إلى احتلال الكويت عام ١٩٩٠ لكي يتغلب على المعاناة، لكن الأمر ازداد استفحالاً.

في الفصول الأخيرة من الكتاب يتحدث الكاتب بشكل مفصل عن الدسائس والمؤامرات المضحكة التي تحيكها عائلة صدام وحواشيه، وعن محاولات الانقلابات الفاشلة، وعن مرض صدام بما يسمى بجنون الاضطهاد، وعن البشاعات والجرائم الوحشية التي لا تصدق والتي تشهدها أقبية التعذيب التي أعدها صدام .كما يتطرق الكاتب بشكل مفصل إلى محاولاته الفاشلة للحصول على أسلحة نووية مشيراً إلى لعبة القط



والفأر التي كان يلجأ إليها صدام مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة في التسعينات.

ينهي كون كولين كتابه بالقول صراحة "إنّ على صدام أن يرحل"، فهو كارثة على شعبه ويعرّض السلام في الشرق الأوسط للخطر، وأنه لن يتردد في صنع الأسلحة النووية واستخدامها لو أتيح له الحصول على مادة اليورانيوم.

وإذا كان هذا مبرراً لأن تقوم الحرب لا محالة ضد العراق، فهذه مسألة أخرى .فالكثير من المحاولات الانقلابية الفاشلة ضد صدام أثبتت مدى صعوبة إيجاد البديل عنه.

وفي الختام يحاول هذا الكتاب أن يفهمنا، وبوعي، ما آل إليه وضع صدام حسين وأنه ليس هناك من حل سهل لهذه المعضلة.

Con Coughlin:
Saddam: The Secret Life
384 pp, Macmillan, London
2003, € 20.

* وُلِدَ كون كولين في سنة ٥٥٩١ وعَمِلَ مراسلاً في الشرق الأوسط لصحف بريطانية مختلفة، وهو يتولى اليوم رئاسة تحرير صحيفة الـ «صانداي تلغراف».

ترجمة: محمد أمين المهتدي

أيام لا تنسى

شمل تروي تجربتها في «فكر وفن»

في يوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير من هذا العام ٢٠٠٣، توفيت أنّا ماري شمل. كل من يعيش في الدول التي تتكلم اللغة الألمانية ويهتم بالشرقيات يعرف اسمها. كتبها التي تتعدى المائة جذبت الكثيرين من عشاق الشرق إلى العالم الإسلامي. ليس هناك أي من المستشرقين حظي بالمكانة التي تبوأتها هي. أثناء منحها في ألمانيا جائزة السلام للكُتّاب شرّفتها أيضاً باكستان وشتى البلاد الإسلامية الأخرى بالعديد من الجوائز وشهادات الدكتوراة الفخرية.

ولدت أنّا ماري شمل في السابع من نيسان/ أبريل عام ١٩٢٢، وتعلمت اللغة العربية عندما كانت تلميذة في المدرسة. في عام ١٩٤١ حازت على الدكتوراة في برلين. عملت كأستاذة في جامعات أنقرة وهافارد وبون، وعملت أيضاً كأستاذة زائرة في العديد من الجامعات. محور أعمالها كان يدور بصفة خاصة حول الشعر الصوفي الإسلامي وخاصة الشعر الصوفي لجلال الدين الرومي و يونس عمره وكذلك السير الشعبية الإسلامية في كل من باكستان والهند. إلى جانب عملها الأكاديمي ونشاطها في الترجمة كانت شيمل أيضاً إحدى مؤسسي مجلة «فكر وفن». ليس فقط لها الفضل، من خلال المجلة، على التعريف بالاسلام في الغرب، بل ساهمت بنشر الاستشراق في العالم الاسلامي والتقاء الثقافتين ببعضهما عن طريق الحوار. في العام الماضي ٢٠٠٢، صدر كتابها «الشرق والغرب» والذي يعد سيرة ذاتية، كتبت فيه عن تجربتها مع مجلة «فكر وفن»، واحتراماً لذكراها ننشر هذا الفصل من الكتاب.

لا بد أن ذلك كان في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٢ حينما زارنا ألبرت تايله. في هذه الليلة وقف أمامنا رجل قصير في منتصف العمر بعينين داكنتين ومفعمتين بالحيوية. دعوناه إلى كأس من النبيذ، وكان قد أرسل لي قبل ذلك بفترة قصيرة نسخة من مجلة «هومبولت» الثقافية التي يشرف هو على إصدارها بالأسبانية، التي نشر فيها ترجمتي لقصيدة يحيي كمال «الراقصة الأسبانية» مع صورة رائعة لراقصة فلامنكو. والآن جلس بيننا وحكى لنا عن حياته وأعماله، كان لوقت طويل في تشيلي حيث أصدر في فترة المهجر مع أودو روسكر مجلة Deutsche Blätter السياسية الأدبية، ثم انتقل إلى اليابان، والآن هو في سويسرا. سألته أمي: "ولكن كيف كانت بدايتك؟" فرد قائلاً: "أول عمل كبير أقوم به كان إصدار مجلة تدعى Böttcherstrasse، غالباً لم تسمعي بها." لكنه جاء هنا عند أناس لديهم الخبر اليقين، فخالتي ميا عاشت لسنوات طويلة في فوربسفيده. وحيث إن لدينا أقارب في بريمن، كان ملك القهوة وراعي الفنون لودفيغ روزيليوس اسماً معروفاً لنا، طالما تعجبت، وأنا طفلة، من المعمار الغريب لشارع بوتشر وتأملت أعمال برنهارد هوتغر الفنية التي يعرفها ضيفنا معرفة جيدة، دون أن أفهمها. سألت أمي عن تفاصيل كثيرة عن أوساط حي فوربسفيده وأجاب هو عن الأسئلة إجابات مرضية، بما في ذلك السؤال عن الراقصة سنت ما هيسا Sent Ma Hesa. بعد ذلك قررنا أن نستمع منه إلى حكاياته عن اليابان وتشيلي ومناطق أخرى، بما في ذلك مسقط رأس ألبرت، وهي منطقة دورتموند ـ هورده.

طبعاً كان هناك هدف عملي من الزيارة وهو أن وزارة الخارجية تريد إصدار مجلة ثقافية باللغة العربية إلى جانب مجلة هومبولت التي تصدر بالإسبانية والبرتغالية. تولى تايله هذه المهمة وعليه الآن أن يبحث عن مستشرقين متخصصين. ومهمة المجلة كانت بالضبط ما أحلم به في سري، أي مجلة تؤكد على توطيد العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، ويكون تصميمها جميلاً وراقياً. مع الوقت أصبحت «فكر وفن» مجلة رائعة باللغة العربية تصدر مرتين سنوياً ويبلغ عدد صفحاتها ٦٩ صفحة. وكان لكل عدد غلاف زخرفي (على غرار تلك المطويات التي صارت تزين فيما بعد الكثير من البيوت والمساجد في العالم

Photo: Bundesbildstelle.



أنا ماري شمل

الإسلامي) يصممه أحد الخطاطين المشهورين ويتناول موضوعاً محدداً. وكان العدد الثالث أول عدد يحقق نجاحاً فعلياً، وكـان مخصصاً لفن الخط الزخرفي. وقد تناول أهمـية الخط في الغرب في القرون الوسطى وتأثير الخطوط الزخـرفية الـشرقيـة على فنون الرسم والتصوير الغـربية المعـاصرة وضم العدد قـصائد عن الخطوط وأشياء أخرى. تناول العدد الخامس موضوع الحيـوان الخرافي وحيد القرن والذي لم يقتصر ظهوره فقط في فنون العصر المسيحي الوسيط، بل ظهر أيضاً في الفن الإسلامي، سواء أكان ذلك في المنمنمات أو في النقوش السلجوقية أو على السيراميك. ترجمنا من الأدب الغربي نص إنغريد بيشر Ingrid Bachérs: «أرجوحة وحيد القـرن» إلى العربية، وبالعكس ترجمنا قصيدة توفيق صايغ: «بضـعة أسئلة لأطرحها على الكركدن» إلى الألمانية. كان العدد العاشر مخصـصاً للنساء وكان إعداده قاصراً على النساء. وهكذا سارت الأمور. احتوى كل عـدد على الأقل، على مقالة فلسفية، ومـقالة علمية، وسيرة ذاتية لأحـد المستشرقين الألمان. وكنا ننشر أيضاً ترجمات من اللغات الشرقية، وبهذه الطريقة عرفت أشياء كثيرة عن الشعر العربي الحديث، تعرفت على أشـعار بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ومـحمود درويش ومحمد الفـيتوري. أما أشعار البياتي، التي أحبها بشكل خاص، فقـد قرأتها أولاً عندما نقلها كاريل بيترتشيك Karel Petrácek إلى التشيكية، لكنني وجـدت أن فهم الأصل العربي أسهل. وقد قمت في كل عدد تقـريباً بتهريب بعض التجـارب التي لا تنتمي إلى العالم العـربي ـ الإسلامي، سواء أكـان ذلك في صورة مقال عن التـأثيرات العربية في الهند، أو تعريب لأشعار مكتوبة باللغة الأوردية، أو مداخل إلى أعمال جلال الدين الرومي أو محمد إقبال. لأنني توصلت من خلال أسئلة مترجمينا ـ ونخص هنا مجدي يوسف بكثير من الثناء ـ إلى اكتشاف مـفاجيء وهو أن معرفة العرب، حـتى المثقفين منهم بثقافة الشـعوب الإسلامية الشرقـية محدودة جداً، وهكذا حاولت أن أقدم لهم شيئاً من هذا الثراء الضخم الذي يتمتع به الإسلام في تركيا ووسط آسيا والهند وإندونيسيا. ألم تكن سمرقند وبخارى في الماضي هما قلعتا المعرفة الإسلامية في العصور الوسطى؟ ألا يبتهج المسلم وغير المسلم بروعة «تاج محل»؟

لم يكن البحث العلمي هـو فقط ما يبهـرني في «فكر وفن»، فقد كنت أشـعر بنفس السعادة في تصـميم المجلة مع فني متمـيز في فن الإخراج الصحفـي. لقد علمني تصميم الماكيت الكلاسـيكي بالمقص والغراء وتجهيز الصفحة بصورة فنية، أن أضع هنا زخرفاً وهناك قصـيدة كحاشية. كانت لي في ذلك متعة كبيرة، وبخاصة طوال الوقت الذي كنا نطبع فيـه في مطبعة أوغسطين الشهيرة بمدينة غلوكـشتات وقبل أن يصبح العمل كله آلياً باستخدام أجهزة الكمبيوتر.

كان للعمل أيضـاً جوانب لطيفة أخرى، فـقد كنا نذهب إلى المتاحف والمعارض، وحـاول ألبرت أن يتيح لي فهم الفن الحديث، وتعلمت الكثير من خلال ذلك، رغم عدم إعجابي عامة بهذا الفن (لقد جاء حبي لأعمال

ماغريت بعد ذلك بوقت طويل). كنا نزور عروض المسرح أيضاً، بدءاً من سيدتي الجميلة ووصولاً إلى العرض المبهر لمسرحية «العنة فاوست» من إخراج بيجار Béjgart في أوبرا باريس. وهكذا ازددت ثقافة من خلال المجلة. وعندما كنت أذهب إلى سويسرا للعمل في تحرير «فكر وفن» في منطقة أونتراغري، كان يسبق ذلك طقس معتاد وهو تناول الغداء بمطعم «فاليزر كانه Walliser Kahne» بزيوروخ ثم التمشية عبر شارع المحطة وينتهي الطريق دائماً عند بشرونفلي بساحة باراده، وهو جنة المتعة. وفي آخر المطاف هناك مطعم وجبات سريعة اسمه «أوسترن» عند المحطة. لقد تعلمت إلى جانب العمل بعض الأشياء الدنيوية أيضاً.

لكن عندما حصلت على وظيفة ثابتة في جامعة هارفارد لم يعد ممكناً الاستمرار في العمل بالصورة القديمة، إضافة إلى أن النقاد رأوا أن مجلتنا لها طابع نخبوي. لم نرغب في تغيير أسلوب المجلة وأدت بعض التعقيدات إلى أن أترك العمل بالمجلة عام ١٩٧٤ بعد عشر سنوات من العمل الممتع. وعندما ترك ألبرت تايله العمل، دعتني هيئة انترناتسيونس إلى تولي إدارة تحرير المجلة بمفردي. لكنني لم أرغب في ذلك ولم أجرؤ أيضاً. وكذا انتقلت المجلة إلى أياد أخرى وانفصلت عنها كلية لكنني أتذكر بين حين وآخر ذاك الوقت الجميل الحافل بالإنجازات.

ما مضى، لا يعود
لكنّه يغيب مضيئاً
ويظل إشعاعه باقياً لأجل طويل

ترجمة: *أحمد فاروق*

المصدر: Annemarie Schimmel: “Morgenland und Abendland. Mein west-östliches Leben”, S. 163-166. © C.H. Beck Verlag, München 2002.

أحمد حسو Ahmad Hissou

لغة العلوج ومأزق الإعلام العربي

الحرب على شاشات التلفزة

"كل صحافي يحصل على المعلومات بمقدار مشاركة بلاده في الحرب من عدمها." هذه الجملة لم تكن لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف، بل نقلها مراسل القناة التلفزيونية الألمانية الأولى ARD في الكويت عن ضباط أمريكيين وبريطانيين في جنوب العراق. إذن الوصول إلى منابع المعلومات يتم بشكل استنسابي، والمعلومة لن تقدم ليطلع عليها الرأي العام ويتعرف من خلالها إلى مجريات الحرب، بل هي سلاح في هذه الحرب إلى جانب المقاتلة القاذفة أو الدبابة.

كان جلياً منذ البداية أنّ حرب الخليج الثالثة ستخاض على شاشات التلفزة تماماً بالتساوي مع ساحات المعارك. فكولن باول وزير الخارجية الأمريكي حذّر الصحافيين، حتى قبل وقوع الحرب، من عدم التوجه إلى العراق، ونصح المتواجدين هناك بالمغادرة. هذه الإشارات كانت واضحة بأنّ الجانب الأمريكي لا يريد شهوداً على حربه، ويسعى إلى احتكار الصورة والمعلومة أيضاً، خصوصاً إذا ارتفع عدد الضحايا المدنيين في صفوف العراقيين. سادة واشنطن ولندن الذين أداروا ظهورهم لكل العالم وخاضوا الحرب دون غطاء دولي وفي ظل معارضة شعبية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، توجسوا من الإعلام. لأنّ المعارضات للحروب السابقة، كحرب فيتنام وغيرها، تصاعدت بعد وقوعها ووصول أنباء الضحايا والخراب.

في الحرب الجديدة رفع العالم ناقوس الخطر منذ البداية وارتفعت أصوات المناهضين للحرب حتى من بين أخلص حلفاء القوة العظمى الوحيدة في العالم. الثقافة المدنية المناهضة للحرب بلغت أوج قمتها في العالم الغربي، رغم احتقار شعوبه لدكتاتورية صدام حسين البغيضة. من هنا كانت حساسية أمريكا وبريطانيا عالية جداً من الإعلام.

الإعلام العربي كان الحاضر الأقوى في هذه الحرب وذلك بوجود محطات تلفزيونية تملك قدراً كبيراً من الحرية، وقدراً آخر أقل من الاستقلالية، عطفاً على مهنية، هي جديدة في تاريخ هذا الإعلام. وحين نتحدث عن محطات التلفزة العربية، فإننا نستثني منها المحطات الرسمية التابعة للحكومات العربية. ما نعنيه بالإعلام العربي هنا المحطات الفضائية الإخبارية «المستقلة؟» كالجزيرة وأبو ظبي والعربية وغيرها من الفضائيات الخاصة، التي لعبت دوراً رائداً في كسر احتكار الإعلام الغربي لتغطية الحرب وخصوصاً محطة الـ CNN الإخبارية الأمريكية الذائعة الصيت. إنه درس تعلمه الإعلام العربي من حرب الخليج الثانية.

الانتصارية العراقية ومأزق الإعلام العربي

لم يكن جديداً على العالم العربي أن يسوق نظام عربي ما هزائمه ويحولها إلى انتصارات كلامية. وربما تكون هذه الظاهرة ملازمة لجميع الحروب التي خاضها العرب في القرن الماضي، بدءاً بمعارك فلسطين الأولى مروراً بالاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ وحرب الخليج الثانية وانتهاء بـ «أم الحواسم» التي لم يعمر النظام العراقي ليعلن انتصاره فيها. إلا أنه مارس هذه الانتصارية في الأسبوعين الأولين من الحرب، عبر المؤتمرات الصحافية اليومية لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف وغيره من المسؤولين العراقيين. وما ساعد النظام العراقي في تسويق انتصاريته، تعثر القوات الأمريكية والبريطانية في مدن الجنوب العراقي والمقاومة التي لقيها في الأيام الأولى من الحرب وخصوصاً في أم قصر والبصرة. الإعلام العربي، من جهته، ساهم في تسويق هذه الانتصارية وخلق أوهاماً في الشارع العربي وكأنّ النظام العراقي بجيشه وقواته الخاصة يقاوم الغزو الأمريكي لأرضه. هنا لا بد من الدخول في التفاصيل وإيراد بعض الأمثلة، ولنأخذ الفضائية الأكثر شعبية في العالم العربي، أعني محطة الجزيرة الفضائية القطرية التي لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال إلى حد بدت تغطيتها للحدث العراقي وكأنه خطاب رسمي لنظام عربي يقاوم. ولوحظ وكأنّ القناة القطرية قد حددت مسبقاً هدفاً لتغطيتها وهو تلبية ما يعتلج في نفوس المشاهدين العرب التواقين إلى رؤية مقاومة عراقية للغزو الأمريكي. ربما أكثر من ذلك إذ ظهر العراقيون على شاشتها وهم ملتحمون مع «قيادتهم» في مقاومة الغزو. الجزيرة التي ترفع شعار «الرأي والرأي الآخر» تدرك تماماً أنّ هناك «آخر» في العراق يخالف رأي حاكم بغداد، إلا أن هذا «الآخر» لم يجد له مكاناً على شاشتها. لم تستضف الجزيرة خلال ثلاثة أسابيع من الحرب أي معارض عراقي مهما كان انتماؤه السياسي، سواء من معارضة الداخل أو الخارج. لا بل نسيت دورها الإعلامي وأضحت طرفاً من خلال تصوير المعارضة كمجموعة من الخونة جاؤوا على ظهور دبابات الغازي. واكتفت، في تغطيتها للحرب بالاتصال بـ «خبراء عراقيين (من الداخل)، أغلبهم أساتذة جامعات في العراق، موالون للنظام (طوعاً أو كرهاً)، حتى إنّ بعضهم ظهر بالزي العسكري الذي دأب المسؤولون العراقيون على الظهور فيه منذ الحرب التي شنها النظام العراقي على إيران في مطلع الثمانينات. فأين مصداقية محلل سياسي يتماهى مع نظامه حتى في طريقة ملابسه. الخبراء العرب، الذين استضافتهم الجزيرة، سواء أكانوا محللين سياسيين أم عسكريين (ضباط سابقين)، تجاهلوا لغة الوقائع وانساقوا إلى لغة وزير الإعلام العراقي الانتصارية، التي توسلت مفردات بذيئة ينأى أي عاقل بنفسه عن استعمالها، ولعل أكثرها اتزاناً كانت مفردة «العلوج».

في الأيام الأولى للحرب استضافت الجزيرة رئيس تحرير صحيفة «القدس العربي» السيد عبد الباري عطوان، كضيف دائم في الاستديو ليحلل ما يدور على جبهات القتال. والسيد عطوان، ومن خلال لغته العاطفية والمثيرة للغرائز لا يهتم بالوقائع أو بالحقائق على الأرض والفرق الشاسع بين قوة الطرفين، العراقي من جهة والأمريكي - البريطاني من جهة أخرى، بل جل ما يصبو إليه بث الحمية في القوم على طريقة "طاب الموت يا عرب" دون التفكير في النتائج، وفيما ستسببه هذه الانتصارية من انكسار ويأس وقنوط عند الجماهيرية العربية، "حين يذوب الثلج ويبان المرج". وهو ما حصل في يوم التاسع من نيسان/ أبريل حين سيطرت القوات الأمريكية على العاصمة العراقية بدبابتين؟ واختفت القيادة العراقية وكأنها "فص ملح وذاب" بعد ساعات من تهديداتها برد نوعي على القوات الغازية؟

مراسلة لقناة الجزيرة في بغداد قدمت تقريراً عن المقاومة العراقية. تقرير موثق بالصور، عراقيون مسلحون في شوارع بغداد على أهبة الاستعداد للقتال. ومن الجانب الآخر، نساء منهمكات بأعمال المساعدة من طبخ وما شابهه، وكأننا في إحدى الغزوات في الأيام الأولى من ظهور الإسلام. والمراسلة لا تتورع عن تسمية هؤلاء النسوة بـ «الماجدات»، أي اللقب الذي تفاخر رأس النظام العراقي بإطلاقه على نساء العراق. لكن تبين بعد

ذلك أنّ من قاوم لم يكونوا «أماجد» ولا «ماجدات» صدام ولاجيشه وقواته الخاصة، التي زرعت الرعب في نفوس العراقيين لعقود، بل بضعة متطوعين عرب.

مثال آخر، حين ظهر الرئيس العراقي في صور تلفزيونية في حي المنصور، ليثبت أنه على قيد الحياة، اتصلت الجزيرة بالسيدين حمدين صباحي وعماد فوزي شعيبي، ليقوما بتحليل دلالات هذا الظهور! فماذا فعلا الخبيران العربيان؟ لقد أمطرا المشاهدين بخطاب قومي انتصاري عن فشل الاستراتيجية الأمريكية في الوصول إلى القائد العراقي، وها هو يظهر بمنتهى الشجاعة بين شعبه في أحلك الظروف. علماً انهما يدركان تماماً أنّ الرئيس العراقي لا يظهر في مكان عام وفي الظروف العادية إلا إذا تم تمشيطه جيداً وزرعه بعناصر الأمن، فكيف والغازي بالدار؟

لماذا إذن خداع المشاهد والمتلقي العربي؟ هل غيرت شارة النصر التي رفعها الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في بيروت عام ١٩٨٢ من حقيقة هزيمة المقاومة الفلسطينية في لبنان؟ هل يمكن الصمود في وجه الترسانة الأمريكية بالعظات الأخلاقية والشتائم ولغة العلوج؟

الإعلام العربي، ورغم ما قلناه عن هذه القنوات الفضائية، وقع في الفخ الانتصاري. هنا لا بد أن نشير إلى مثال آخر وهو قناة أبو ظبي، فهذه الفضائية بدت في تغطيتها لمجريات الحرب أكثر اتزاناً وأقل انتصارية وقدمت صورة عن مجريات الحرب كانت أقرب إلى الواقع من كل وسائل الإعلام العربية الأخرى. حتى في الجانب العسكري استعانت منذ البداية بمحلل عسكري واحد (ضابط مصري متقاعد) ابتعد عن لغة الشعارات وزود المشاهدين بمعلومات عسكرية دقيقة عن سير المعارك كانت صادمة أحياناً.

هل هناك حياد صحافي؟

يصعب تحديد حدود الحياد الصحافي. فبالرغم من أنّ الإعلام الغربي يتشدق بالمهنية العالية والحياد، إلا أنّ معظم المؤسسات الإعلامية الكبرى في الغرب هي ذات توجهات سياسية معروفة. في ألمانيا، مثلاً، تميل القناة الأولى إلى تبني أفكار «يسار الوسط» أو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم، في حين أنّ القناة الثانية مقربة جداً من المعارضة اليمينية المسيحية. لكنّ المهنية العالية التي يتمتع بها العاملون في هاتين المؤسستين وحرية التعبير الواسعة في ألمانيا تحدان من بروز الأحادية أو الموقف المسبق من الحدث أو ظهور تأثير خط المؤسسة في صناعة الخبر. لذا نجد الفروق بين هاتين المحطتين تكاد تكون غير مرئية. هذا الأمر غير معهود في العالم العربي بسبب الإعلام المقيد والمدروس والمراقب بدقة. غير أنّ الطفرة الإعلامية التي شهدتها البلاد العربية في السنوات الأخيرة بوجود مناطق إعلامية حرة وبروز محطات التلفزة الفضائية الخاصة أو شبه الحكومية خلق أرضية لهذه الإمكانية هناك أيضاً. لكن السؤال، الذي ينهض هنا، و كيف يكون الإعلامي العربي حيادياً إزاء حرب تخاض على بلد عربي؟ تحدث صحافي عربي بارز (بلال الحسن) عن هذه النقطة مدافعاً عن التغطية الإعلامية للقنوات التلفزيونية العربية، معتبراً أنّ الصحافي العربي صاحب رأي في هذه الحرب ولا يستطيع أن يكون لامبالياً تجاهها، ولابد أن يعكس رأيه في تغطيته للحدث. لكن ثمة بون شاسع بين الرأي وبين لوي الحقائق، أو بعبارة أدق تحويل الهزيمة إلى انتصار كلامي وتسويق إعلام نظام دكتاتوري. ثم إنّ القاصي والداني يعلم أنّ هناك معارضة قوية لحاكم بغداد وأكثر من أربعة ملايين عراقي فروا من البلاد، وأنّ النظام يعيش في عزلة بسبب ما ارتكبه بحق شعبه، أليس من واجب الإعلام العربي إبراز هذا الجانب، حتى يكون المشاهد غير العالم على بينة من طبيعة النظام الذي «يقاوم» الغزو الأمريكي.

ومع كل السلبيات التي ذكرناها، لا بد من الإشادة بهذه القنوات الفضائية التلفزيونية الخليجية كالجزيرة وأبو ظبي والعربية. فهذه المحطات الثلاث زرعت مراسليها في معظم المدن العراقية وكانت حاضرة مع الحدث في أصعب ظروف الحرب، وتعرضت مكاتب اثنتين منها للقصف الأمريكي المباشر ودفعت إحداها الثمن غالياً وهو حياة أحد عامليها. ولعل الشعار الذي تبنته قناة أبو ظبي معبر هنا وهو «الحدث من أرض الحدث». وبهذه الطريقة تحرر الإعلام العربي من هيمنة المحطات التلفزيونية العالمية، خصوصاً الأمريكية، واستطاع أن يصل إلى الأحداث من خلال عيون مراسليه. لكنه فشل، وخصوصاً الجزيرة، في تقديم خطاب إعلامي عقلاني يضع الحقيقة أمام المتلقي حتى لو كانت مُرة.